أحلام الأحمدي

رواية

قَلْبُ جَاسُونْ

محفوظة
جميع الحقوق

الطبعة الثانية

© منشورات الأمراء 2019

السداسي الأول، مارس 2019
ردمك: 3 2 9499 9931 978

- اسم العمل: قلب جاسوس
- اسم المؤلف: أحلام الأحمدي
- عدد الصفحات: 116 صفحة
- الناشر: منشورات الأمراء للنشر والتوزيع
- المدير العام: نادية سلطاني

جميع حقوق النشر الورقي والالكتروني والمرئي والمسموع محفوظة للناشر
وغير مسموح بتداول هذا الكتاب بالقص أو النسخ أو التعديل إلا بإذن من الناشر

(+213) 656 07 70 78
(+213) 36 45 15 54
www.facebook/aloumara6.wsetif
aloumara6@gmail.com

Princes For Publishing
منشورات الأمراء
نهج بغدادي الرحموني، قسم 215 قطعة رقم 4
ولاية سطيف/ الجزائر

إهداء

إلى آخر الثمرات التي ستزهر...

إلى آخر القلوب النقية والبسيطة التي تشبهها...

إلى آخر قطرات الغيث على الفيافي العطشى...

إلى تلك الأرواح الباقية على العهد والتي لا زالت تبعث الحياة رغم أرواح المفسدين على هذه الأرض..

الى الانسان... الذي يناضل كي يبقى انسانا...

أحلام الأحمدي
الجمعة 1 فبراير 2019

تقديم

السلام عليكم

لا مكان للزمن في عبودية الروح عند الكاتبة أحلام الأحمدي، نصوصها تنتج مكانا آخر في مساحة القرار أمام عدم امكانية التغيير تاركة الذات الطائعة، متحررة من أثره المباشر، يركز اسلوبها على التحرر من الخنوع الى عزم البطل خلال صيرورة الحث على الخروج منه اليه، هذا الخروج الذي راح يمضي بتطورات نفسية وحدثية جعلته يندفع الى معركة جوهرها الانتقام من النفس، وفي خلده انه ضحية لمشاعره المغتصبة، وفي هذا المنطق التصويري لتسلسل الأحداث عند الكاتبة الأحمدي نلاحظ التداخل بين شهوة التعبير عن الفعل الانساني الاجتماعي من جهة، وصورة الابداع القصصي من جهة أخرى لنجد القاص يحكم متنه الحكائي على الغرض المدرك بابداع منقطع النظير، ليبدو الاحكام شاغل المتلقي فيجلو سياقه في «تحفيز» تنمو فيه الفعلية الوجدانية الوطنية الى منتهى الغرض حتى تحقيق وظيفة القص باندغام السرد في البنية الروائية ليصبح الموضوع أقدر على استنطاق حكائية كل عنصر في المتن الروائي، محافظة على غائية كل تركيب من هذه العناصر بذكاء المتمكن من ادواته بعيدا عن عشوائية السرد والانشاء.

بقلم الأديب د. عبدالكريم بعلبكي

بادئ ذي بدء

الليالي هي أكثر الأوقات قربا للنفس. فالليل ليس مسكن المرتاحين والمتنعمين أبدا.

الليل ملاذُ فكر التائهين، الذين يبحثون عن الطريق ويفكرون في الخلاص، ويفتشــون عنه بين سواده الذي سينقشع صبحــا مخلفا هش الأحلام ذاك.

فما نام الليلَ صدرٌ تلهف لشيء تبحث أعماقه عنه أو هام قلبه به، أو نحرت آلامه غمضات العينين تلك.

ليس من نيامه المغرمون أو الحزانى بكل صيغ الحزن التي ومضت دمعا وآهات كثيرة.

وليس نيــامه من كــانوا يمتلكون شيئــا يحســون به، ويبحثــون عنه، أو يفكرون فيه.

بل الليل عندي، هو ذاك الزمان والمكان الذي أزمجر بالأحاسيس فيه تارة، وأغرد بها تارة أخرى. ليضج بداخلي بترنم وعقيدة.

وها أنا قد جمعت من كل تلك التصانيف، شيئا في قلبي؛ شيئا سوف أكشفه لكم كسرّ، أكثر منه كقصة.

إنه ما سوف أتكلمه مع نفسي ولكني سأكتبه وأنا متأكد أنكم سوف تقرأونه وأنا أتدثر الترابَ لا محالة. فقد انتهى كل شيء بالنسبة لي. انتهت الحياة، بل انتهى الليل نفسه، لأنني أصبحت أنامه دون أمل أو أحلام.

فبين قضبان السجن، وجدرانه ومسجونيه أعيش أنا حرا، واقفا شامخا طائرا لا أرى من السجن إلا مكاني. وهو بقدر ضيقه، فإنه فسيح مترامي المسافات لي، لأنني لا أمتلك شيئا تضيق به الأمكنة أو الزوايا.

لا أملك غير انتظار حكم بالإعدام، سينفذ في أي يوم من هذه الأيام، وأنا أنتظره بثبات واصرار، أعاند فيه روحا تريد البقاء هنا مع جريحي الذي بين الضلوع، وأعاند جزءا منها يتوق الى حرية لا تُحتجز بين أكفان الأجساد.

ولكنني سوف أسرده لكم لتقرأوه كسر أكثر منه كقصة، ستتعرفون على روح بحثت عن خلود ذكراها، وان مات سجن الجسد فيها.

وها قد أوصيت أن يُنشر سرها بعد موتي واضمحلال اللحم من على عظمي.

لأنني سوف أفصح عن أسرار أحطتها بكل عهد ووعيد ونفس وعمر، بعد أن عرفت أن لا طائل من حياة لا تنبت أرضها زرعا وثمار

بيد أني سأهدي لأولئك المتسترين عن الأبصار، حكاية عن بعضهم، وعن بعض خطاياهم أيضا.

ستقرأون أسراري، سرا وراء الآخر، لتتعرفوا على عقل ابتغى سبيلا للحياة ومات لأجل سبيله واختياره.

أدريان عام 1960. كييف/ أوكرانيا
بين قضبان سجن لوكيانيفكا

السر الأول

سجون الروح أعظم من سجون الجدران

يونيو حزيران عام 1945
مدينة فايمر

الشيوعية ملاذ المضطهدين، هي في حد ذاتها كفكر اقتصادي، سوف تدخل لقلوب الفقراء كرغبة قوية في العيش، دون أن تتفوق طبقات المجتمع على بعضها البعض. سيؤمنون بأنها اقتصاد عادل، يجعلهم متساوين طبقيا، أو يقتربون من أولئك الأغنياء، من قد تمنوا حياة كحياتهم.

وسيدافعون عن ذلك الملاذ بكل ما لديهم وإن ابتغوا ثورة تقلب على الأرستقراطيين ملذاتهم وعيشهم، فينتقموا من الفقر بطريقة تضمن لهم المساواة، وبثورة تفكك تلك الطبقية وتصهرها في نسيج الاشتراكية. تلك هي المساواة التي تبدو لهم أنها من حق الجميع.

كارل هنري ماركس، كأب للشيوعية، أصبح أبا لي، وتوطنت أفكاره كل شيء في داخلي لتصنع من أدريان الماركوسي، كما يحب الكولونيل جون مناداتي، روح وقلب وفكر ذلك الفيلسوف.

قرأت له وأنا ابن الثانية عشر، أين كنت أعمل في مكتبة صغيرة، لإعالة نفسي، بعد أن فرضت ظروف الحرب في ألمانيا هذا، وأيضا بعد أن سافرت أمي مع زوجها الجديد، واستحواذ زوجة الأب على أبي، لأفقد الجميع بعد ذلك في قصف القوات الجوية البريطانية على ألمانيا.

لا يهم على كلٍ، فذاك ما صنع أدريان الماركوسي، وربما لأنني منذ صغري

كنت انغمس في قصة صد ورد بين والدين يصارعان ثروة متروكة لا يجب أن تخرج خارج أسوار منزل العائلة، فقد كان والديّ أبناء عمومة، تزوجا لتبقى الثورة في يد آل ريتش هوفمن.

ولكن لا حسابات مع الحب، فالحب لا يُشترى بالمال، وإن كنت أقر أن للمال سلطة تدوم لبعض الوقت لا غير.

ولكن يقينا، المحبون كالماء، مهما كان لونه، فإنه يمتزج، ويصبح جنسا واحدا، رائقا، تتخله مثالية الألوان ليصبح أجمل.

أما والديّ فقد كانا زيتا وماء، لم يستطع أي واحد منهما بلع ريق الآخر، بل حقدا على كل تلك الثروة التي جمعتهما مع بعضهما، كما حقدا عليّ، لأنني أذكرهما بلقاء جسدي لا رغبة فيه، فتتعدى تلك الشهوة العابرة بينهما، ليليها القرف.

بل قد صارحاني كثيرا بهذا، في كل مرة التقت عيناهما بي، فكنت كورقة ضعيفة تهرب من عاصفة الضغينة والقسوة التي لا ذنب لي فيها، لمكتبة أدسُّ رأسي ودماغي في رفوفها متسترا عن صخب الكراهية الذي لا ذنب لي فيه أيضا.

وهربت... أتستر من كون غضبهما علي، لانصاع نحو عالم الفكر والقراءة والفلاسفة.

ابن السابعة، كنت أحفظ كل أشعار فريدريش شيلر. قرأت جميع مسرحياته. وقرأت ليوهان فوتلفغانغ، كأدب ألماني تخللني وسحرني، وجعلني لا أحس بهدير الوقت وزيف البشر، ورحت أقلب كل كتاب، لأتفقه بعدها في كل آداب العالم.

كل هذا لأنسى كرها وتعنيفا لأسمى شخصين على وجه الأرض يملكهما أي طفل، والذي كان الأجدر بهما، أن يجعلاه بذرة تحاط بخصب الحنان والأمان.

لكن. كانت تلك القسوة تشبه شرارة في حطام من الحطب. حطب كان لا جدوى منه، مرمي دون نفع، لتلتهمه شرارة صغيرة لا ترى بين أكوامه حتى أصبحت شعلة عظيمة، تزين ليلا عقيما، لا تنطفئ أنواره ولا تخبوا، مادام الركام داخلي يزيد.

الوحدة لم تضعفني، لم تجعل مني طفلا بليدا، تنحره العقد ويقتله الضعف.

بل كنت طفلا ألتهم كل كتاب أراه، فجعلت من الكتب والمكتبة وطنا ومنزلا وعائلة، وأصبحت مفكرا صغيرا، أهرب من السكون والتعنيف، الى مدارك تصقل كل أطراف فكري وجوانح كياني.

عشت عالمي، حتى وصلت الثانية عشر، وهناك قرر والديّ أن يعيشا حياتهما، ولم يفكرا في لحظة واحدة، بل إنهما سارعا بالهرب.. ربما مني أو من كره جثى كثيرا على قلبيهما، بالمضي قدما، ولكنهما لم يكملا مشوارهما في تلك الحياة، لينتهي الأمر بموتهما مع زوجيهما أثناء القصف البريطاني على ألمانيا زمن الصراع بين دول الحلفاء والمحور، والذي قصفت فيه الولايات المتحدة الأمريكية مدينة فايمر، أين حدثت تلك المجزرة ومات فيها خمسون ألف إنسان دون رحمة.

ولكنني كنت من القلة القليلة جدا التي نجت، بعدما جلست تحت ركام المكتبة لخمسة أيام بلياليها، أتشقق وأتمزق، من آثار الجوع والألم والشعور بالغثيان، فأصبحت أهذي ورحت أسول لنفسي أكل أوراق الكتب الممزقة والمدفونة معي بين تلك الزاوية الصغيرة، أوراقا آوتني في كل مراحل ضعفي، بل أنقذت حياتي في مجزرة لم ينجُ منها إلا من قدر لهم قدرهم النجاة.

كأن نفسي، لا تعلم أن من يبيع من تكرم عليه، سيصبح في كل لحظة من حياته دون كتف، ودون ذراع حتى.

فايمر مدينة تقع في وسط شرق ألمانيا، كانت جمهورية ديمقراطية فيما سبق، ولكن الفكر النازي اجتاحها، ودحر سنوات ازدهارها التي بقت تاريخاً ألمانياً بامتياز، ولتعيش جحيم الحرب الذي يقتلع كل حي وكل أخضر ويابس. ولكن، من هنا سيبدأ تاريخ الأسرار التي كونت أدريان ريتش هوفمن، ليصبح أدريان الماركوسي وليصبح...

ولكنني سأترك التاريخ وحده من يكشف بين هذه الأوراق، بعض أسراري ويكشف قدَرها وما سُطّر لي.

السر الثاني

عقلانية كوّنت جاسوسا

العقلانيةُ بشيرُ لفكر زاهد، في حياة تترنح بين الشهوات؛ بين ما تتضمنه الشهوات، من مال من نساء من نفوذ من سلطة.

فهي تؤثر في الفكر، وتكبح الشهوة وتسيطر عليها لتصبح في العقل كشيء جانبي، قد يُستغنى عنه لحاجة عظيمة، لا تضاهيها الملذات في شيء.

إنها كالإيمان بشيء ما، فعندما نؤمن بكل قوتنا، فإن الشهوات تذوي لتصبح طريقا وليست هدفا.

إنها تأوّلك انسانا لا تشتريك الملذات والفتن، ولن تسيطر عليك في طريقك الى المجد أو العظمة، وستبني نفسك كفرد لا يصل الى مكانه الكثيرون.

فالإنسان الذي لا يشترى بالمال، لن يشتريه الشيطان أبدا.

الثالثة عشر، كان رقمَ عمري ولحظة بدأت فيها حياة نمى السر الأول فيها كوهج القبلة الأولى، التي عندما تتذكرها ستصيبك ذكراها بالدوران وتهتز لها كل أركان نفسك.

كنت ملقى خائر القوى، متصدعة طبلة أذني من أصوات القصف الرهيبة التي لم تنقطع على مدينة فايمر من عام 1945 حتى خلفت الخمسين ألف قتيل، فتعفنت الشوارع من روائح الجثث والأعضاء المفتتة والمختلطة ببعضها دون حرمة إنسانية تذكر.

كنت تحت ركيزتين حديديتين من بقايا المكتبة المدمرة، تقاطعتا حتى

شكلتا زاوية حادة، بعناية إلهية حمت أدريان ريتش هوفمن لغرض ما.

كنت أستطيع البقاء على جنب واحد، طوال تلك الليالي والأيام الخمسة لضيق الزاوية.

تنفست بصعوبة عبر فتحات صغيرة ودقيقة، خلفها اهتزاز التراب والأنقاض، كلما سقط صاروخ على فايمر، كأن السخرية في الموت والحياة تطال دائما من يفهم تفاسيرها ويفسر مفاهيمها.

والمضحك أنني لكي أعيش، كنت أدعو الله أن يسقط صاروخا قربي، ليهز الركام فتدخل صدري أنفاس ثمينة بقدر قيمة الحياة.

في تلك الليالي عرفت، كم أن الروح عزيزة! وكم نحن ضعفاء أمام الموت، أمام أسبابه، بل إن الفتوة التي حفت جسدي، قد أجبرتني على التعلق بالحياة، لأنها لا زالت تتعطش لقدسيتها وبكل قوتها، وإن كانت بين الموت وقرف أسبابه ودواعيه.

لا أعلم. لا أعرف لمَ تمسكت بها بكل قوتي؟ وأحسست أن كل ما قرأته لن يذهب سدى ولا عبثا، وأن حياتي التي بنيتها من إثم الكره، لن ينهيها صاروخ سقط دون أن يقصدني بذاتي، لأكون طريدة لموت دون مغزى.

كنت أعرف أنني سأموت يوما ما، ولكنني أردت أن أموت لأجل شيء واحد يستحق اندثار جسدي وأنفاسي، ويكون عظيما ولأجله أسير نحو موتي دون خسران.

خمسة أيام بلياليها، عشتها أصارع الشهوات بعقلانيتي، بفلسفتي في الحياة نفسها. التي أجترها من المتناقضات، وكيف لا؟ وقد ربتني كلمات العظماء وفلسفتهم الفكرية التي تسللت بين مشاعري السوداء، لتغتسل وتصفى في عظمة شغفي بكل ضد ينمو ويقهر أضداده بعزة.

شهوة الجوع قتلتها، شهوة الراحة عزلتها، شهوة الحياة أرسلتها في كل

نبضي، لتكمل نبضه دون اكتراث بصوت القنابل، ورائحة العفن والتراب.

في تلك الليالي والأيام الخمسة. تعرفت على أدريان ريتش هوفمن، بوجهه الذي يحمل عقلا آخر، يصارع ببسالة الموت، ويقهر نفسه كأنه راهب أمام امرأة باهرة الجمال تتعرى دون خجل، تدعوه ويتصدى والرغبة تنحره.

ولكن..

بدأت بعض الفتحات الصغيرة، التي أمنت لي الحياة تكبر بكل عنف، وتتساقط الأتربة لتغطيني فأصبح منغمسا بين الغبار والتراب، كأنني عنصر منه ممتزجا به.

بقيت أعاند فقدان الوعي باستماته، أحاول طلب المعونة في البقاء حيا من أي شيء، كقشة الغريق التي تصبح آمالا ضخام، ولكن كانت الجرافات تجرف كل شيء أمامها، حيا كان أو ميتا، وما أكثر الموت في مدينة فايمر! حتى أنني أكاد أنصف الجرافات التي تجرف الجثث، على رغبتي في الحياة، فالفناء تعمق هنا وريح الموت والاندثار فاقت كل نفس تستجدي الوجود مجددا على هذه الأرض.

ولكن. هيهات، سأصارع كل ضد أمامي، وسأقاتله وإن كان الموت نفسه، فلست مخلوقا يكتسحه اليأس في لحظة أقوى منه أبدا، بالرغم أنني الآن مردوما تماما تحت ثقل التراب وأكوام الحديد والحجارة.

لقد انقطعت أنفاسي، فرحت أسحب بشهيق عميق كتل الغبار، بنفس واحدة، فأرشحه بخرقة من رداءي، مزقتها لأضعها على أنفي وفاهي، وأستنشق ببطء علني أبقي بعضا من الهواء ذخرا، ورحت أقترب من الموت ولا أستسلم، حتى أحسست بأصوات تقترب من مكاني، أكاد أجزم أنهم قوات الحلفاء، ويا للعجب! فمن الموت أهرب، لأجد شبيها للموت من جهة ثانية، فإما أن أكون أسيرا أو مقتولا بيد الأعداء أنفسهم.

وكان لا بد لي من الخروج من الحمم، حتى وإن كنت سأقفز فوق فوهة البركان.

رحت أبحث بيدي السليمة تحت الركام، حتى تلمست حجارة صغيرة، وتذكرت أنني تحت ركيزتين من الحديد، وفي لحظة رحت أضرب إحداهما بالحجارة، لتصدر صوتا له صدى ويسمع بكل تأكيد.

وفي زمن يقدر بقيمة الحياة، هدأ صوت الجرافات، وهدأ كل شيء، ولكنني واصلت ضرب ركيزة الحديد بالحجارة، دون توقف، ربما لأنني أحسست أن الهدوء كان لأجلي. لأجل صوت الراغبين في الحياة، ستصمت كل الأصوات مهما كانت، ستصمت قوتها أمام جبروت الحياة ورغباتها.

ثم بدأت الأصوات تتعالى، وصوت الأيادي التي تبحث بين تلك الأكوام، يخترق الحجارة والحديد والكتب والخشب، وكنت أنتظر. متى أتنفس هواء جديدا؟ يا رب. فطعم الغبار والتراب أغناني عن الجوع، وما هي تلك الأنفاس إلا قليلة ستنفذ، ستنفذ قريبا، حتى بدأت أسمع الأصوات تقترب، وصدى الحجارة والأكوام التي ترمى بعيدا وتنتفض على الأرض، يبشرني ويتوج صبري وكفاحي بصفحة جديدة من الحياة.

وفجأة، بعد وقت أعده بتوقيت أنفاسي الصعبة والثقيلة والمتكتلة بالغبار، أشرقت في وجهي الحياة، وإن كان شروقها على أرض رائحة الجثث المتعفنة المميت، يرجعني الى دائرة موت أخرى أصارعها، أصارع حقيقة سقوطي بين جنود الولايات المتحدة، التي اكتسحت فايمر بعد انتصارها على ألمانيا.

عندما تم إنقاذي من الركام والدفن حيا، أصبحت عالقا بين أعداء كانوا بالأمس القريب جدا، قد قتلوا بقنابلهم كل عائلتي، بل ارتكبوا مجزرة حولت شوارع مدينتي الى بقايا من الموت. منظرها وحده يقتل الإنسان رعبا وقرفا.

آلاف القتلى في شوارع متقطعة متفحمة، روائح مختلطة بالدم بالألم،

تتسلل وجميع حواسك وروحك ترفضها ولكن لا محالة تقرفك.

والغرابة! أنني الآن مكبلٌ بجميل لا ينصف حقدي وألمي وخوفي، ولكم أن تتصوروا هذا.

هنا بدأت عقلانية من نوع آخر تصيبني وتفتش لي عن مكمن لمشاعر تتضارب ككرتين من حديد تتبادلان الارتطام بانتظام قدري عجيب، مُصدرة صوتا يفتش عن طريق.

أمضيت حوالي اليومين في مستشفاهم، وقد نفعني الصمت حتى ظنوا أنني أبكم ولا أتكلم، وربما لا أحس أيضا، لأن الكسور التي نالت من قدمي وذراعي، لم تنتصر على وجعي وصمتي، فقد قاومت ألما رهيبا لا وصف له، بعينين مفتوحتين، ترمشان كأي لحظة عادية تمر علي.

لقد تعودت على التظاهر والكتمان الشديدين، حتى لا أظهر لأحد عمق ألمي أو ضعفي وانكساري.

كنت أظن أن فلسفتي التي أمارسها في الحياة، ستجعلني لا أقهر في نظر غيري، لأنني لا أهاب ألمهم ولا موتهم.

ولكن حسابي الذي حسبته أمامهم، هو ما حولني الى شخص آخر، لم أعتقد أنني سأكونه أبدا.

طوال تلك اليومين عوملت بكرم وجود، ولكن الذي حدث لسكان فايمر كان قاسيا ومؤلما، أين جر الآلاف منهم، تحت الغصب والتهديد، للمشي بين الجثث المتعفنة والموتى المقطعة أوصالهم والمتفحمة والتي كانت لأناس طالما عرفوهم وعاشوا معهم.

لأخذ العبرة كما كانوا يقولون، من الحكم النازي المهزوم شر هزيمة، ولمعرفة أن كل حكم ديكتاتوري وعنصري ونازي، سينتهي شعبه وهو ميت بأوصال مقطعة ومتفحمة، دون حق حتى في قبر يستر تلك الهزيمة.

عندما خرجت وأردت هذا، عَرَضَ أحد الجنود مساعدتي، ولكنني رفضت كبرياءً وغطرسةً، وأصبحت أحاول المشي بقدم وذراع قد جبرت كسورها بأيادي هؤلاء، الذين قدموا من وراء البحار، أعداء أم أصحابا فهذا لا يجدي أمام الحزن الصارخ مكان جثث الجميع، ورحت بعنادي أسير الخيلاء، كأنني حر ومنتصر.

لا أعلم لماذا كنت أفعل هذا؟ ولكن ربما لأنني لا أحب الهزيمة حتى أمام نفسي. لا أستسيغها ولا ترم نظرتي الصلبة لهذه الحياة الهشة والكئيبة.

أكملت طريقا لا أعلم إلى أين! وإلى أي المنازل سأذهب، فباختصار جميع المنازل أصبحت ركاما وخرابا.

جميع أهالي مدينة فايمر يضطجعون العراء والخيبة والهزيمة. أما أنا فقد شاركتهم ذاك الاضطجاع إلا الهزيمة، فقد احتفظت بها بين نار أحرقتها الصواريخ.

لم أشعر بالضآلة والخزي، لأنني أحسست أن الأحلام هناك بين الحطام، ما زالت ترقص، في انتصارات غير انتصارات العنصرية المخزي. كنت أرى هزيمة النازية انتصارا لي وليست انتصارا لغيري مهما كانت أفكارهم.

كنت أنظر الى البعيد، أرى فكرا سيسطع بين الظلام، وينصف جميع البشر، ويخلد جنسا من الفكر الذي لا بد له أن يمجد ذكرانا كبشر.

كنت أكافح للمشي بين تلك الأطلال والدماء والعفن والفشل والخيبة، التي تظهر على كل ألماني آنذاك، في انكسار نظرات عيونهم المتحسرة التي لا تجرؤ في النظر في عيون أحد من جنود الحلفاء.

وكنت أرفع رأسي عاليا، كأنني أملك دما بريطانيا سخيا، وسلالة صافية من جنسهم أيضا.

ولكن لا ذاك ولا ذاك. أنا أمتلك فكرا آخر، لا ينتمي لأي أحد من المنتصرين

أو المنهزمين حتى. لا أنتمى للقتلى ولا للمقتولين..

ثم وأنا أمشي متثاقل الخطى، أحسست بمركبة عسكرية تسير الى جانبي، بقدر خيلائي الذي تخطوه خطواتي المتعثرة والمتكسرة تلك، بقدر سيرها الذي يجانبني كأنها تجاريني.

شعرت بخوف يدب، ربما بشك يدب هو الآخر، فلعلهم قد نسوا ثأرهم من الألماني هذا، وها هم يتلاعبون بي ربما، بعدما تركوني كفريسة هشة الأوصال.

لكنني عرفت أن المواجهة ستنهي كل خوف بشري يطأني لأهزم بخيلائي شرهم، فتوقفت ملتفتا إليهم، لأكمل قصة الانتصار على ذاتي.

لم أر غير السائق ومن يجانبه، ليتكلم فور الحال بنبرة عسكرية حادة ومتعالية.

وهنا تأكدت، أن اللحظة الأخيرة قد حانت، وعلى كلٍّ كنت سأموت إما بقهر والدي، أو بالصواريخ أو الركام أو الاختناق، ولقد مر كل ذاك ببساطة، لتتعدد الأسباب والنهاية واحدة، ولا بد أن الموت قد حانت لحظته، فعلني أموت بكبريائي على يد هذا العدو، لهذا لن أخاف أبدا وسأصعد المركبة محتفظا بخيلائي وانتصاري على هذا الفناء.

فتحت باب المركبة الخلفي، لأجد رجلا بشاربين طويلين، يلبس لباسا عسكريا، تحتفل بذلته العسكرية وحدها بأوسمة لا أكاد أحصيها، واشرأبت نفسي، بين سؤال وغبطة وخوف، فما الذي يحدث؟ هل لموتي قيمة هكذا؟!

سحقا! أم أنني أهذي من أثر ما حل بي.

لكنني حاولت الجلوس بعنفوان، وخبأت دهشتي جيدا، فعقلانيتي شديدة الفتك بأفكاري وتعابير جسدي، وكأن الذي أمامي بمجده، لا يساوي أمامي حفنة تراب.

وأكملت المركبة السير، والقائد العسكري يشعل سيجارته الفاخرة وأعرف أنها كوبية الصنع بيد أتقنت لفها بلفافتها الخضراء المذهبة بفخر. كانت تشبه تماما لفافة جدي الذي افتخر بهدايا تبغه الكوبي دائما.

بقي ينظر لي، وكنت أحس هذا، ليقول:

ـ هل تتكلم الإنجليزية؟

أجبته بنعم واحدة فقط، فقال:

ـ ألست خائفا؟... أم أنك تدعي الجنون يا بني؟

نظرت له بكل ثقة قائلا:

ـ ليس لدي ما أخاف منه، ولا عليه يا سيدي.

ابتسم ابتسامة ماكرة، وهز رأسه هزة خفيفة واستدار للأمام ليصمت كلية.

أما أنا. فقد كنت أتساءل بيني وبين نفسي، الى أين سيأخذني؟! وما يريده من هذا الانسان الذي لا يملك شيئا؟ والحقيقة.. أنني تخيلت الوصول الى سجن أو مقر تعذيب واستنطاق، أو إلى حفرة أردم فيها لأرجع من حيث أتيت.

ولكن. فُتح باب المركبة، لأنزل منها، بعد أن فتحوا الباب للقائد العسكري ذاك، بكل سرعة وتقدير واحترام، فدخلت وراءه الى منزل يقع خارج مدينة فايمر بقليل، وأجزم أن سكانه قد أخلوه خوفا من القصف وربما قد قضوا نحبهم وسط ذاك الدمار.

ورافقني جندي منهم، ليضمن وصولي الى المكان الصحيح.

وأي مكان!

أدخلني غرفة بها حمام وسرير ونافذة مشبكة بالحديد.

وأغلقوا على باب غرفتي الصغيرة تلك، فمضى عليّ أكثر من أسبوع،

وأنا مسجون فيها، وقد زارني طبيبان، كل واحد فيهما شرّح بنظره جسدي تشريحا وفحص كل عضو فيه، وسأل كل واحد منهما نفس أسئلة الآخر ليدون ويتأكد ويعاود الفحص.

هل هي كسوري يا ترى؟! ما هؤلاء إلا أشخاص غريبون حقا! يقدمون على المبالغة في فحص عجيب، وربما الكثير من الغرابة والمبالغة في الاهتمام أيضا.

ومنذ ذاك الأسبوع، بدأت لا أتلقى أي زائر مهما كان هدفه نحوي، مجرد باب يفتح ليوضع الطعام، ويغلق مرة أخرى، لا غير ذلك أبدا.

والحقيقة المغيبة عنهم، أنني كنت لا أكترث لشيء البتة. وكيف أنتبه لهم وعندي رفيق لا يشبه البشر. لم يعرفوا أنني معتاد على الوحدة، وأنها هي الأخرى معتادة علي ورفيقتي الدائمة، وعندما وجدت كتابا لكارل ماركس، في الدرج الذي يجانب سريري، انتهى العالم الموجود من حولي، والذي يعتقد سكانه أنهم قد نسوني فيه.

كنت أقرأ كتابه رأس المال، بتأنٍ شديد ونهم عميق، كأن حدسا قد أصابني، أن مكوثي سيطول في هذه الغرفة الباردة لوقت طويل.

طلبت في أحد المرات منهم، جلب قلم وكراسة، وقد آتوني فعلا بهما في لحظات، لتمضي بعدها ثلاثة أشهر كاملة وأنا على تلك الحال، بين الكتابة والقراءة والجلوس، حتى نفذ صبرهم، أو قرروا أن يكسروا حاجز صوتي.

دخل علي نفس الشخص ذو الشاربين الطويلين، والأوسمة الكثيرة، وتقدس المكان رهبة به، فالتف حوله الجنود كأنهم يعتبرونه إلها، أحدهم يجلب الكرسي، الآخر يضعه، الآخر يشاهد ويتحقق من ذاك العرش الخشبي البسيط. الكل كان في خدمته وتقديسه، لكنني كنت مستغربا من شيء آخر طرح أسئلة متتالية في عقلي، فما حال هذا الأمريكي معي؟! ما به يعتبرني

بذلك النفوذ والجاه وما أنا بذلك؟ ما الذي يراه في ولا أراه في ذاتي؟ حتى يليها أهمية الزيارة، وأهمية التواجد جانبه؟! فهذا وحده أصابني بالفضول والذهول.

بعد دقائق لا أكثر، اختفى الجميع كأنهم مأمورون بذلك ومبرمجون عليه، وبعد سكون مطبق أطبق على المكان، أشعل سيجاره الكوبية، وبدأ ينظر لي وهو يمشط شاربيه بسبابته وإبهامه من يده اليمنى، لأنه كان يحمل السيجار بيده اليسرى. لقد كان أعسر بالتأكيد.

كنت قد وضعت الكتاب، والكراسة والقلم وجلست أراقبه صامتا.

وبعد لحظات وهو يستنشق سيجاره وينفث دخانها قال:

ـ رأس المال لكارل هنري ماركس، أي صفحة وصلت؟

أجبته:

ـ الصفحة 105 سيدي.

ـ وما رأيك في كتابه؟

صمتُّ قليلا أفكر. ليس في الإجابة لا، ولكن ما كان يريده هذا الكولونيل بالضبط من إجابتي، فمعظم الأمريكيين ليسوا اشتراكيين. كأنه يريد سبر غور عقلي، لكنني لن أخسر مع سؤاله هذا، وسأجيبه بطريقتي التي سأجد حلا وسطا بها.

تكلمت قائلا:

ـ الشيوعية الاقتصادية حلٌ لعقدة نفسية لا أكثر، كارل ماركس يريد تقسيم أرباح رأس المال على كل طبقات الشعب، وجعل العدالة الاجتماعية تسود الوطن الشيوعي الذي سيختفي ويصبح وطنا اشتراكيا. حسب نظريته.

الشيوعية كجمهورية أفلاطون متأملة وآمله، ولكنها لن تتحقق على مستوى المجتمعات البشرية غير نظريات مثالية فقط.

ولكن..

سألني باهتمام.

ـ ولكن ماذا؟

ـ أحب الفكر الشيوعي بطريقتي، كفكرة. فهو يقوم على رفع الطبقة العاملة والكادحة لمستوى اجتماعي مريح وفي دائرة الأمان، ولكن كفكرة أخرى، فإنه سيجمد الإبداع والطموح والرغبة في التنمية الفردية، ليعزز الاتكالية بشدة فيصبح الأمر شديد التكلفة على رأس مال الدولة نفسها، وعلى الصالح الفردي والعام بعدها، وهذا سيجعلها تندثر، وبالتأكيد سينهيها ويدمرها اقتصاديا. وبالتالي ستنهار جميع مقوماتها الأخرى.

ستكون لها نهاية قريبة لن تتعدى الخمسون عاما القادمة

صمتَ يتأملني بطريقة غريبة، ليقف أمام النافذة المشبكة بالحديد، ويقول:

ـ من أنت أيها الفتى؟! فعمر الثالثة عشر لا يكفي عقلك الكبير! أخبرني وبكل صدق ودقة من تكون؟

السر الثالث

العمر الحقيقي ليس رقما.. العمر هو مستوى فكرك

مدينة فيلاديلفيا. فبراير 1946
الولايات المتحدة الأمريكية/ ولاية بنسلفانيا

عندما يكشف الجاسوس سره.

احبسوا أنفاسكم هنا، فهذا العالم غامض، سكانه مدمرون وسيدمرون، وتتحول الشجاعة والتضحية والمبادئ في عالم الجواسيس فوق مستوى التعبير والحقيقة.

لا شيء سيكون مقرفا كعالمي، لأنه مليء بالخداع، بالحذر والشك والتحليل والاستنتاج.

لن يعيش أي جاسوس على وجه الأرض دقيقة يحس بها أنه على سطح هذه الأرض، لأنه في حرب مع كل شيء، مع الأصدقاء قبل الأعداء، مع الأقرباء قبل الغرباء، مع الجماد قبل الحي. إنها حياة لا قبل لأحد بها، لأنها ببساطة لا تستساغ.

الجاسوسية تحتاج الى شخص باع كل شيء، وسيبيع كل شيء في لحظة.

فلسفتنا: الغاية تبرر الوسيلة، فليس لنا مبادئ محددة ولا قيم مضبوطة، المقدس لدينا هو الهدف وفقط.

لكي تكون جاسوسا، يجب أن تمتلك صفات محددة، وملامح هيكلية وأساسية تحدد شكل جاذبيتك وسحرك، يجب أن تكون فاتنا وسيما مثقفا موهوبا فنانا وذكيا، والأهم لصا ومحتالا بارعا جدا، ولا بأس ان اتقنت خفة

اليد لتضيف لسحرك مثالية طاغية.

باختصار، الجاسوس صناعة إنسان مفكر بفلسفة الأنانية المطلقة والتي تحتوي هذا الأناني بلمسة سحرية أيضا.

وعندما تختار لتتلبس هذه الشخصية، فاعلم أنك انتهيت كإنسان لتبدأ كآلة بشرية خالية من المشاعر.

ذو الشاربين الطويلين، الكولونيل جون جونيور سلفت.

رئيس وحدة المخابرات في سي أي إيه الأمريكية، للشؤون الألمانية، عمره عندما التقى بي ناهز الحوالي الثامنة والخمسون عاما، متزوج، أب لولد واحد يدعى ويل سلفت كان قد توفي في حادثة غامضة.

وسأبدأ الآن بسرد تفاصيل السر الثاني في عالم صناعتي كجاسوس.

بعد لقائي بالكولونيل جون جونيور سلفت، وحديثنا القصير، رجع لي مرة أخرى وأخرى، لمدة ثلاثة شهور كاملة، وتوطدت علاقتنا جدا، وقد أصبح لا يفارقني أبدا، كنا نتناقش في كل شيء تقريبا، حتى أننا قد تناقشنا في قضية إلحاد كارل ماركس، بطريقة فلسفية رفضت من خلالها موضوع الإلحاد صيغة وإجمالا، لكنني كنت أجعله يبتسم بعد نهاية أدلتي وإجابتي.

كان الكولونيل، يدعوني أدريان الماركوسي، ولكنه يتعجب أنني معجب به بطريقة ما، ثم أنتقده بطريقة أخرى.

كنت أجره الى النقاش، وتليين فكره لاستقبال أفكاري، والحقيقة تقال، أنني تبنيت الاشتراكية ولكنني حذفت منها بعض الأفكار التي لم أستسغها، لأنني اعتبرها حلا لعقدة نفسية اجتماعية، تبنت العدالة الطبقية، وأجهضت الإبداع والتنمية الخاصة، ليذوب الفرد في الكل بطريقة استغلالية وغير عادلة.

بالرغم أنني أيضا اعتبرت الطبقية قمة العنصرية، ستنتهي لأنها لا تحمل

بين كفتيها أوزانا متساوية.

وفي ذاك الوقت، لم أكن أعرف أنه يمهدني لطريق سلكه هو قبلا، وسيتخذني له عضدا.

كان جوني أو الكولونيل جون يريد مني أن أرث عالمه، بخبرته بسلوكه وبذكائه، والذي استهوتني طريقته في النظر للأمور، وجعلتني مفتونا بعالم الجوسسة الخفي والغامض، والذي ليس له مفتاح رغم أبوابه الكثيرة.

كنت أعلم أن جوني، الذي يصبح صديقا لي ووالدا عند لقائي، سيصبح العظيم الكولونيل جون جونيور سلفت عندما يتركني.

وهذا ما جعلني أعتقد بسني الطفولي، أن هذا الطريق هو الذي سأموت فيه عظيما.

لم يكن بيني وبين الكولونيل فكر مشترك أبدا، فبقدر اشتراكيتي، بقدر ما تبنى هو فكر وطنه وقوميته الرأسمالية.

ولم يتأفف من هذا ولم يزعجه، بالرغم أنني تجذرت في الكثير من كلامه، ورحت أناقشه وأناظره، فما عاملني طوال معرفتي به كند له.

بل لم أحس طوال تلك الشهور في فايمر بألمانيا، أنه يكسر شخصيتي وأرائي، أو يثبت العكس.

أحسست بما لا يثير جدلي بيني وبين نفسي اللحوحة، أن جوني ليس وراءه زيارة ونقاش وفقط. بل هناك شيئا ستكشفه ليلة العشاء هذه.

فقبل السفر الى فيلادلفيا ببضع ساعات، تناولنا العشاء وكان حساء سمك دافئ وبعض اليخنة، تدفئ أجسادنا من شتاء فايمر.

ليشرع الكولونيل في الحديث كعادته، ولكن هذه المرة غير كل مرة، لقد تحدث عن سره.

وبدأ في سرده، وعندما كشف ستار خباياه، فكرت أنني لن أخرج من

المنزل هذا حيا، بل عرفت أنني سأموت هذه الليلة لا محالة.

مسحت فمي بتأنٍ بعد أن وضعت الملعقة الفضية أمامي، وبقيت أستمع لكلامه الأخير على أرض ألمانيا، ليقول:

ـ الموت يا بني، ليس النهاية، الموت هو أن تموت حقيرا، دونما أثر أو عمل تعيش به، وتخلد اسمك بفخر بعد النهاية المحتومة علينا جميعا في هذه الحياة، أنت لست فتى عاديا يا أدريان، أنت انسان مدهش ومختلف وبك لمسة العبقري الصغير، تملك هذا الفكر الذي لا يجب أن تموت ذكراه تحت التراب، وعرفت ذلك من أول لحظة التقت عيناي بك، وان أطلعتك على سري فهذا لغاية يا عزيزي، لأنك ستكون تلميذي فتموت عظيما كما يجب، أو تكون أدريان عامل المكتبة لأقتلك هاته الليلة، ولكنني سأعلمك أنك ستلقى دفنا لائقا، في نفس الحفرة التي أنقذناك منها، أو أن تصير رجلا سيلقى الموت يوما ما بتاريخ عظيم.

لم يترك لي هذا الكولونيل خيارا، فإما مسايرته أو الموت بين هذه الجدران.

وفي تلك الليلة بالذات، تم التحرك نحو المطار العسكري، للولوج الى الولايات المتحدة الأمريكية، وبالضبط إلى مدينة فيلاديلفيا في ولاية بنسلفانيا من عام 1946 من شهر فبراير.

انتقلت الى هناك، بأوراق رسمية تثبت أن جنسيتي بريطانية، وقد كانت جميع أوراقي جاهزة كأنه يعلم اختياري ويفهم كيف هو شكل مصيري، وأصبحت في ليلة واحدة أملك حياة مختلفة تماما فعجبا لسيرورة القدر، تخلق لنا أحيانا نصف قرار، ثم يبنى مصير الحياة كلها عليه.

عندما نبأني الكولونيل جون بسره، حزرت أنني سأكون ميتا لا محالة، فهذا السر لا يعيش مع اثنين، ولكن الوضع قد اختلف وقد أكملت حياتي

كأدريان مارك، دون أنفاس تؤخذ، ولكن بمصير يُكتب ويُغير.

نبوءة الموت التي توقعتها لي، تحققت بعد ستة أيــام من وصولي الى فيلاديلفيــا ولكن بطريقة مرادفة، فقد توفي الكولونيل جون بطريقة غريبة وغامضة، أثــارت شجني وخوفي حقــا من هذا العالــم الغريب والمخيف والغير متوقع.

فقد كان الشخص الوحيد الذي اعرفه جيدا حسبما ظننت ذلك الوقت.

رغم هذا فقد دخلت منذ وطئت أقدامي أرض فيلاديلفيا، بطريقة منظمة وسريعة وبتفاصيل دقيقة جدا حتى بعد موته.

حزنت على موت الكولونيل كثيرا، ولكن حقيقة الأمر التي طفت على السطح، أنها كانت حربا إيديولوجية بامتياز، ستخلف الكثير من الضحايا، فلم تمر على التاريخ الإنساني والفكري حرب مثلها على الإطلاق. لم تلد تلك الفترة سباقا نحو التسلح وفرض السيطرة والنفوذ السيكولوجي والفكري على أكبر مساحة جغرافية على كوكبنا فقط، بل قد تفنن المعسكرين في تأسيس أكبر كوادر للمخابرات والجواسيس العباقرة الذين غيروا أحداثا كثيرة في التاريخ الإيديولوجي لتلك الحرب الهادئة بصمت وبخفاء.

وبالطبع لا زالت كل ملفاتهم طي السرية والكتمان لحد الآن.

صناعة جاسوس مفكر، ليست هدية من السماء، وليس للسماء أن تجود بمثله عليهم أبدا.

فغالبا بل دائما كان الجاسوس يختار لأجل أسباب كثيرة ولكنها كالقانون، لن تختلف عليها أبسط العقول المخابراتية في العالم.

وعندما نتكلم عن عميل فليس كما نتكلم عن جاسوس تنصب أعلى المناصب. واخترق مناطقا محظورة في الحياة الشخصية لأشخاص كان من المستحيل أن تخترق.

بل ان الجاسوس نفسه قد اخترق قبلا من مكونيه، لأنهم استطاعوا أن يذيبوا ذلك العمل الرهيب لينصب في قولبتهم ومصلحتهم وهذا في حد ذاته انجاز كبير جدا.

لكولونيل جون جونيور سلفت، رأى داخلي العمق، عرف بحدسه المخابراتي من يقصد ومن يحدد هدف دولته وقوميته، ورغم وفاته فقد وجدت أن كل حياتي قد تأثرت بطريقة صقله لي في تلك الشهور الماضية، وغيرت بعضا منها ولكن للسواد لا أكثر.

عندما كُوّنت، كجاسوس، مُورست عليّ أعظم الضغوط، بل وقد عدوا حتى شعر رأسي وعدد خلايا جسدي وقاسوا سرعة تنفسي ووصفوا طريقة مشيي.

ولكنهم توقفوا عند شيء واحد فقط، فهم لم يعرفوا إن كنت اشتراكيا أم رأسماليا، وقد توقفوا أمام فكر لم يكن بين الإثنين.

عش حرا... كي لا تموت

جوسسة لتغيير الفكر

ولدت في فايمر عام 1932 في أواخر تشرين الثاني بألمانيا. وقد دللتكم على طبيعة تلك الحياة التي عانيت منها الجفاء والظلم من أقرب الناس عندي.

وأنا في عمر الثالثة عشرة عاما تعرفت على الكولونيل جون جونيور سلفت الذي انتهت حياته، بعد أيام قصيرة من دخولي فيها للولايات المتحدة الأمريكية، بعد أن أخذني معه الى مدينة فيلاديلفيا في بنسلفانيا من عام 1946.

بعد ذلك تغيرت حياتي واتخذت سبيلا آخر تماما لم يكن يخطر على بالي لو لم يكن حقيقة، ولكنها حقيقة كاملة أسفرت عن تكوين جاسوس يدعى مارك، فولك، أدريان الماركوسي وغيرها..

وبعد عشرة سنوات كاملة أصبحت الفتى الذهبي والساحر، ومصدر أمل كبير، لمخابرات المعسكر الرأسمالي وقادته.

ولكنها واقع كامل بما حوته هذه الحقيقة التي أسفرت عن تكوين مفكر وجاسوس مختلف تماما عن أي جاسوس آخر.

لقد جعلتُ من قدرتي على الإقناع والبرهان، مقدرة وموهبة تجعل من العقلَ البشري أمامي، و مهما كانت سطوته وقناعته في يدي كعجينة خام، أشكلها كيفما أردت.

تعلمت أساليبَ كثيرة ومع الموهبة والمقدرة أصبحت سلاحا يغني عن أسلحة فتاكة ربما.

فعندما تنجح في تغيير أي انسان، مهما كان مختلفا فكريا عنك أو كان يبحث عن فكر آخر ومختلف ليتبناه، أو كان شاردا لا يعرف الطريق، فإنك ستصبح الساحر الفنان في عقول الناس وسلاحا عقليا كبيرا وذا مفعول عجيب في عقول المفكرين والقادة.

ولا أحد يستطيع أن يدرك كم أن الطريق صعبة ومجهدة ومرهقة للغاية، وقد يموت فيها الإنسان وهو حي ألف مرة في اليوم، فتجعل من عقل الجاسوس في حد ذاته كعقل الغربال، يصفي كل ثقيل وخشن، ويُبقي على الناعم الذي يريح وجده وكيانه، ولا يستريح أبدا ما دام على قيد الحياة.

عشت في تلك الحياة المفروضة علي، وقد خضت الكثير من أحداث مريرة وصعبة، تجاوزتها ومضت بعدها في حال سبيلها

حتى جاءت مهمتي الأخيرة، والتي كانت أسرارها الكثيرة تجعلني متيقن أن الجميع يملك أسرارا صنعتها الحاجة أو الولاءات أو المادة أو حتى الكره والحب أيضا.

والآن سآخذكم معي الى بداية مهمتي الأخيرة، في كوبا من عام 1956 حيث كان عمري لم يتجاوز الرابعة والعشرين عاما.

السر الرابع

مهمة جراناما

كوبا هافانا عام 1956

لم يكن هذا الوقت ولا المكان عبثا، اختير الزمان كالمكان بدقة وسلاسة، فإرسالي الى كوبا في هذا الوقت بالذات، كان تحت تأثير السلاح الأول وهي المعلومة، أهم نقطة قوة، تستند عليها محركات الحرب والمعركة، والفوز والخسارة.

إذا امتلكتها كسبت نصف الحرب، وإذا أحسنت مراقصتها فقد ربحت حربا ومعركة وتاريخا. يُسطّر كما تحبه وترضاه أنت.

لقد وصلت الى مرحلة سأترك فيها حرا، أغرد وحيدا في سرب لا يحوي غيري فإما منتصرا أو مهزوما.

تم إرسالي تزامنا مع وصول تشي جيفارا وفيدال وراؤول كاسترو، وكان مؤكدا لي أن قاربهم جراناما قد حط في جنوب شرق هافانا.

كانت مهمتي في ذاك الوقت إيجاد طريق آخر بعيدا عنهم، وشق وقتي بتريث وعقلانية شديدة، بعيدا عن أي ثوري ومناهض أيضا، واقتحام عقول الطبقة المثقفة والعاملة أولا. دون محاربة أو مجابهة فكر أي أحد..

كانت هذه أهم وأخطر مرحلة لي، بعدها سأكون قد ثبت قدمي على أرض تثور فيها الشيوعية فوق مرجل من نار، والصراع محتدم وفي أوجه.

خاصة أن الوضع الأمني مهزوز، وسأتمكن من التغلغل دون إدراك أي كان. بل سيقطع أي سبيل للاتصال بي في سبيل نجاح مهمتي. دخلت ككاتب

ورسام وممثل ومغني، يتعطش للاشتراكية بسرية مُرمّزة يفهمها اخواني الاشتراكيون فقط في ملامح فني وابداعي وتحت مسمى زيارتي للدون إيدواردو آل دييغو. وطبعا كان الأمر منظما ومعقولا وسلسا.

لقد حملت من الفن ما يجعلني محط أنظار الجميع، بوسامتي وثقافتي ولباقتي وأموالي، التي أغدقتها على البسطاء بسخاء.

فكنت ذاك الذي يخترق القلوب والعقول، دون أدنى فرصة لأحد لوقف سيل التيار، لأنهم لن يجارونه حتما.

لا شك أن كوبا جميلة، تتستر الأحلام فيها على شكل رقصات التانغو والسالسا، أين تحرك النساء أجسادهن، فتحرك الدماء الجامدة والمشاعر النائمة على خصر كان ميتا، تحتال عيونهن عليك بغمزة مثيرة فتتحرك أصابعك تود الموت رقصا على ذاك الجسد. والخصر الأسمر والمنحوت.

كنت بادئ أمري، أنتقل في حانة تدعى حانة لويزا ماريا، وقد قدمني الصديق الدون إيدواردو طبعا. لقد ذهبت إليها أول مرة معه، لأغني أغنية كتبت أشعارها.

أذكر كلماتها حتى بعد كل الذي حدث. والذي حدث كانت قصة تتداخل كل القصص داخلها، لتسلك الطريق كالوحي الى العقل والقلب في لمح البصر.

كأن خطوتي الأولى، التي رسمت وخططت لها معراجها نحو كل شيء يعلو هامتي ويعكر انسيابيته في طريقي، تبدلت لتغلفها قدرية السماء إن كانت عقابا أو مكافأة، فأنا لم أستطع الى حد هذه السطور أن أحدد هويتها.

حانة ماريا لويزا، ليست حانة بسيطة، تتحادث فيها العامة وتمضي.

ماريا لويزا كانت موطن المفكرين والثوريين والعاشقين والمتربصين أيضا.

لقد كانت مرتع الطبقة المخملية في هافانا، تتأوه في كل ركن فيها العاشقات من الغرام المكتوب شعرا، أو المدسوس في صدورهن، وعيونهن تتآكلن رغبة في الحب.

لم يكـن ليغني أي كـان في حـانة ماريا لويزا، كـانت تغني الجميلات الأرستقراطيـات، أو من اعتنقت ثورية تشي جيفـارا وتبنت حبه كطفـل يُهدى لعاقر.

وبعد بعض الليالي القليلة، استطعت الدخول الى عمق بعض المفكرين، لتتداخل الشائعات الكثيرة حولي، ودونما أن أذكرها لكم.

لكنني أستطيع أن أقول إنها كانت ربما دقيقة في جوانب كثيرة، رغم أن ناسجيها تقوّلوا مبالغة في الأكاذيب والخيالات لتصدف واقعا نقضته بقهقهة عميقة الثقة كأنها نكتة سخيفة.

حتى جاءت ليلة اختلفت عن كل الليالي، واقترنت بها ملامح قلبي كالحجر الذي حُفر بيدٍ خالدة.

لقد جلست أستمع لدون ألفونسو خوان خوسيه، يتبختر شعره بكلمات سخيفة نوعا ما، كان يرددها وهو في بداية ثمالته بافتخار.

والكل كان ينافقه طبعا، فالدون ألفونسو خوان خوسيه مقربٌ من سلطة البلاد، ومحميٌ بنفوذ لا حصر له.

كنت أحمل دفترا صغيرا أدون فيه أشعارا متخيلة من حبيبة خفية، وكأسا أتظاهر بارتشافها عندما أحس بكلمة سخيفة منه، يريد أن يخبر بها أنه شاعر عظيم.

وفي لحظة صمت الدون ألفونسو، دون صمت ثرثرات الجالسين والواقفين والراقصين، والجالسات والواقفات والراقصات.

لقد سمعت أعذب صوت على وجه الأرض، تخللني كنور في قيعان

الظلام، كأن روحا يا سادة شلت روحي، فسكنت أصواتها الحية في أركاني الجامدة.

بدأت بكلماتها الإسبانية السريعة، وضحكة فتنت حجر كلي بما احتوى من فؤاد وعقل.

وعندما غنت، صمت الرجال وغارت النساء، وأصبحت جميع العيون مشدودة على تلك التي خلقت بإبداع.

السنيورة روزا لينا، التي كان شعرها الأسود الطويل يتموج عليها كموج البحر الهادئ، الذي يراقص القمر عندما يصبح بدرا.

وهي تغني رمى احداهم لها وردة لتبتسم، فينحر الصواب ويسيل دم القلب على احمرار شفتيها التوتيتين.

ابتسم ثغرها على ذاك الشعر الأسود، فمات الليل فيه، وارتخت حبال الفجر لتصطاد قلبي العميق.

كانت تغني عن سواد عينيها، وعذاب قلبها الذي مات من فراق حبيبها، ولكنني كنت أموت أنا عذابا من تلك العينين السوداوتين.

وفجأة، صعد الدون ألفونسو إليها وكان مفتخرا ليقبلها بقوة سحقت قلبي وامتلأ غصة وألما، ولولا رجاحة عقلي لنحرته بضربة واحدة، ولكنني سمعته وهو يسترسل بشعره البذيء والهزيل، لا يكاد ينطق كلمة واحدة كاملة، من أثر الثمالة ليتغزل في أركان جسدها المرمري فأعرف أنها زوجته الجميلة بألم.

حقا! الحياة تعطي أحيانا لبعض البشر كنوزا لا يعرفون ما الغاية منها، أو ما قيمتها أصلا.

حدسي أخبرني من تلك القبلة التي تعمق بها الدون، وبادلتها السنيورة روزا لينا بنفور لا يعرفه إلا من احترف التقبيل مثلي.

أن لا حبا تكنه في قلبها له، ولا حياة حقيقية تخوضها تلك المشاعر التي تنعش دأب الأيام بينهما.

لقد تصنعت القبلة، لقد عرفت هذا، وفي لمح البصر تجسد الشيطان داخلي وامتلكتني رغبة جارفة في اكتساح هاته السيدة التي هجرها شعور الحب بين أحضان هزيلة المشاعر والحياة.

الآن هي غنيمة بين اثنين، غنيمة اصطياد قلبها الذي اصطادني، وغنيمة الدخول الى عرين الدون ألفونسو خوان خوسيه، وهذه بداية صغيرة جدا أمام ما سيحدث.

وبعد ما غنته تلك الباهرة، صعدت فصفقن النساء وارتعدت بعض أشناب الرجال هناك، لأبدأ بأغنية قلبت قلوب الحاضرين خاصة السنيورة روزا لينا، ورحت أغني عن روعة القبلة الأولى، وأسترسل بصوتي وأصابعي التي تعزف برجولة على القيثارة أنغاما استباحت الغرام واللوعة والحب والحزن.

وهنا نزع الدون ألفونسو الوردة من شعر روزا لينا، ورماها لأحدى الآنسات مخاطبا إياها بإعجابه بها، وقد أهداها كلمات أغنيتي.

تفرست في الموقف جيدا، وحللت عيون روزا لينا الحزينة، لأجدها لا تحفل بالأمر مطلقا، بل أظنها ابتعدت عنه متعمدة، لتترك له المجال معها.

هل يمكن أنها لا ترغب به؟!.

فليس هناك امرأة على وجه الأرض، تحب زوجها ثم لا تغار على ملكيتها.

إذن. فلا بد أن هناك ما يدور في الأفق.

تلك اللحظات، عندما كان الدون مشغولا مع إحداهن، كانت هي تقابل محادثيها بابتسامة جوفاء، فتبدو كوردة ياسمين عطشى، سترضى ببعض الندى بل الرذاذ أيضا.

تسللت بين الحضور بروية فرآني إحدى المخمليين الذين تعرفت

عليهم في بعض هذه الليالي الفائتة، ليناديني وكانت روزا لينا معهم، فاقتربت منه وأخبرته معتذرا أن الوقت تأخر وسأرحل عن حانة لويزا ماريا، لتسترق السنيورة روزا لينا النظرات التي تبحث فيها عن إجابة لسري، والهالة الغريبة والغامضة التي تحيط بي وتناقلتها النساء عني.

لقد علمت هذا من عينيها السوداويتين اللتين تنعكس في صفائهما صورتي.

وطفقت راجعا الى منزلي، أشتم أريجها الفاتن الذي لا زال عالقا من أثر قبلة يديها. عندئذ عزمت أن طريقي سيبدأ بالسنيورة روزا لينا خوان خوسيه.

وها هي اللحظات تمر وقلبي أخذ بذكرى صورتها التي تخللتني بقوة، وهزت أعطافي، وبعثرت تصنيفا لذاتي كان قاسيا وعقلانيا ومراوغا جدا.

كأنني في أهم مهماتي، أصبحت فقير الوعي، متهاو كقصيدة خاوية من الخيال.

سكرت بها، واعتنقت خيالها كوتد غرس في عمق سحيق من قلبي، كنت قد نسيته وأهملت شأنه ليغرق في أعماق سحيقة.

ولكنني استدعيت شيطانية نفسي، ورميت التيه الذي غمرني بصورة الحسناء روزا لينا جانبا، ورحت بعبقرية المفكر أنشد شيطانه وقرينه كذات واحدة. لأهتدي الى سلطان فكرة، تربعت على الجميع فتوجت على عرش اختياري.

لقد عرفت أن الدخول لدونا روزا مباشرة سيجعلني أمام احتمالات لن تفيدني بشيء، وخاصة أن الذي جمعته عليها، أصابني بالغرابة فالدونا صعبة المراس ولا تعطي جانبها لأي أحد، أو أي أخرى.

عقدت العزم على التقرب من الدون ألفونسو نفسه، بقيت مدة أنشغل بشخص أكره حتى الاستماع إليه.

كان الدون يعشق الشعر والشعراء، ولكنه يعلم في قرارة نفسه أنه ليس بشاعر ولا يتقن من الشعر شيئا، ولكن الكبرياء الخيالية تصنعت في رأسه لتصنع من كلماته الملتصقة ببعض، سطورا تافهة بقافية تشدو شدو النعيق والكآبة.

لا أنكر أنني أخذت وقتي، كان وقتا لا يضيع هباء أبدا، فعيون روزا لينا تسترق وتسرق النظرات، وأستطيع بحدسي أن أعرف أنها تتحرق لمعرفة أشيائي وتفاصيل حياتي، فأبدلتها صمتا وعدم مبالاة تجعل من تحرقها يزداد لهيبا.

وفي أحد الليالي، كان الدون ألفونسو لا يثمل كعادته، ولم يعد يتمايل بكلماته البذيئة والمنحطة كعقله، وبينما كنت أنصت لكلام أحدهم وهو يمجد الديكتاتور باتيستا، جاءني خبر أن الدون يريد مني الحضور.

وافقت طبعا وقد قمت من مكاني باتجاه طريدتي التي صبرت لأجل خوض مغامرة صيدها لأيام وليال.

عندما جلست الى جانبه، بدا مهتما بي وبكلماتي وأشعاري، وبدأتُ مناقشة ذكورية معه، عارضتها بأسلوب زاد من اعجابه بي، وفي لحظة اقترب من أذني وقال:

ـ ما رأيك يا عزيزي لو تكتب بعضا من أشعارك لي؟

فهمته جيدا واصطنعت الغباء والاستغراب لأسأله بلطف:

ـ هل يمكن أن توضح لي أيها الدون!

ارتشف قليلا من شرابه وابتسم ابتسامة مغرورة وقال:

ـ أريد أن تكون الأشعار باسمي أيها الألماني.

صمت قليلا وجعلت من نفسي نذلا مثله ليروقه هذا الألماني طبعا، وليزداد حوارنا تجانسا حقيرا، أخذت من شرابه لأرتشف منه أيضا وأقول:

ـ وماذا سيكون المقابل أيها الدون؟ العزيز!.

اهتز شنباه على ثغره المسود، كأنه ديك مغتر، لا يعرف عن نزال الشرفاء شيئا، وأجابني بدهشة:

ـ المقابل! لا أعرف ماذا أقول؟! لا يتبادر لذهني أي شيء الآن...

وعندها بدأت السنيورة روزا لينا، تتكلم شعرا بصوتها الذي أقدسه، تصاحب كلماتها العذبة صوت قيثارة جميلة، فتتزاوج تلك الأنامل مع الأنغام، ليصبح قلبي مترملا، فروحه غادرته عند مكان ثغرها.

وعندها صرخ الدون في وجهي، وقال أغرب جملة سمعتها في حياتي:

ـ ما رأيك بروزا لينا؟

هنا تداخلت الأفكار كقطعة ماس قاسية تصقل بعفوية لا مدروسة، واستنتجت ألف فكرة داخل رأسي، ولكنني ما استعجلت أبدا، وتظاهرت بالبله مجددا لأجيبه بسؤال آخر:

ـ كيف ذلك؟ ومن ناحية ماذا؟!

ابتسم ابتسامة حقيرة، كعقله النذل وقال:

ـ ما رأيك في ليلة معها؟ أليست فاتنة؟ تمعن جسدها بل عيناها وثغرها.. تمعن أمواج شعرها الأسود أيها الشاعر الوسيم

وهنا، بالرغم من ثباتي لأنني وددت أن أقتلع لسانه من حنجرته، أجبته بنذالة أيضا، وكنت قد تصنعت الابتسام قائلا:

ـ حقا! وهل سترضى الدونا؟

فتهكم قائلا:

ـ طبعا. فلست الأول يا صديقي، إذن ماذا تقول؟ هل اتفقنا؟

جملته الأخيرة صعقتني، نحرت فؤادي وألهبت غيرة لا مثيل لها، هل

يمكن أن تكون الدونا توافق الحقير ألفونسو خوان خوسيه؟! هل هي بائعة هوى أرستقراطية؟ هل يمكن أن يصل مستوى زوجها الأرستقراطي الآخر لهذه الحقارة وقلة النخوة؟

حقا! كلما أصبحنا نزيد يوما واحدا في هذه الحياة، إلا وسمعنا ورأينا أشياء تغني عن ألف خيال.

لم يخلُ ظني بالحسن بها، بالرغم من أقوال الدون المقرفة، والذي يكون زوجها ستبقى صورتها تشبه تلك الفراشة، والتي تطير بنعومة حول أي شغاف لأي قلب، فتتمحور حولها كل الحياة الفاتنة بكل تلك الأطماع واللهفة، كانت تعابيرها، مفاتنها، نظراتها الخفية والسرية تتآكلني، فهي تجعل أي رجل على وجه هذه الأرض يتمنى اكتساح عالمها، ونحر كل نظرة غريبة عليها أو لها.

فما هذا الأبله الحقير؟! الذي لا يقدر امرأته!

بعقلية عفوية ولكنها مدروسة، استنتجت ألف فكرة داخل رأسي، ولكنني ما استعجلت أبدا، وتظاهرت بالبله مجددا.

تلك الليلة علمتني أن الصبر يصطاد غنائم وآفات، وقد تتنعم الأرزاق عليك بغنيمة كغزالة نادرة مثل الجميلة روزا لينا، أو طريدة لا ثواب فيها كالحقير الدون ألفونسو.

هزتني لحظة هي قصيرة في الحقيقة، كقصر الزمن المتسارع ولكنها طويلة وكبيرة القيمة، فلي حدس أعظم من حقيقة أراها بعيني، ولم يخني في حياتي أبدا.

كان الدون يريد مني سرقة نفسي. مقابل سرقة نفسه، والغريب أن المقابل لكلينا يعتبر عمرا ومجدا وحياة، ولكن الاختلاف في القيمة وتقديرها بيننا، هذا هو ما صنع ذاك الفارق الشاسع.

قيمة الدونا روزا تساوي كل العالم بالنسبة لي، بل إن كل الكلمات وبكل اللغات لن تساوي قيمتها أبدا أبدا.

عندما أكملت الدونا غناءها جلست جانبنا، وكنت حينهـا أراقب الدون ألفونسو، بعد أن حـاولت مغازلة رقيقة لزوجته الفاتنة، لعله كـان سيغار.. أو يقلب الطـاولة والتي نحن حولهـا على رأسي، لكنه هامسها في أذنها وابتسم كأخرق حقير، ليلتهب الحزن في عينيهـا وتتحطم كبرياءها كشظايا لا عد لها.

رأيت دمعاتها يفرفـرن، تمسحهن أناملهـا الرقيقة في استـدارة خفيفة لأصدقائها وهي تتصنـع البسمة وأقسم أنني كنت أسمع نبضها، كأنه يمزق صدرها الذي يشبه نعومة وأريج بتلات الورد الأبيض، بنفسٍ وراء نفس صارخ وأليم.

بعد هنيهات، وقفت متعمدا وحملت لأول مرة كلمات من قلبي لامرأة لا أعرف منها إلا ملامح وجهها، وبعضا من البسمات التي تجودها كلما التقت عيناي بعينيها، فتحاول بسرعة حمل تلك النظرات الى مساحة أخرى من المكان، وربما لم تكن أكثر من ثلاث مرات.

وقفت وغنيت لها بحروف تصف لها نظرتي المتيمة نحوها، وربما قد فهمتها أم لا! لكنني أحسست أن الدونا لا تعير الأشعار اهتماما أبدا.

كانت باردة الأحاسيس ثلجية المسام وربما لا روح لها أو لا طاقة داخلها لتحب أحدا.

لكنني أردت تعطير بعض الجو، المشحون بالغرابة والألم والاستهتار، ببعض كلمات تُفهم فيطيب بها ألم هذا اللقاء.

مضى وقت تلك الليلة ونحن الثلاثة على نفس الطاولة، تكلمت فيها معي روزا لينا بكلمات قليلة كانت فيها، كأنها تخفي خجلها وانكسار

صورتها في عيني، أحسست هذا ولكنني لم أعقب بشيء من ذاك القبيل، واكتفيت بالكلام عن الحياة وأوضاع العالم وكوبا بطريقة لا توحي أي مسار أنا عليه.

فالوضع السياسي في كوبا خطير، وأنصار باتيستا يجوبون متخفين كل ركن في هافانا بل كوبا كلها.

وعندما حان وقت الرحيل، رفعت قبعتي مستأذنا لرحيلي، لتفاجئني روزا لينا بدعوة للعشاء هذه الليلة التي ستعقب الفجر الذي أصبحنا عليه.

كانت تريد أمرا ما، ولن أجعل من حدسي يكلمني عنه، سأدع ملامح وجهي تسرد عفوية مصطنعة، مع سرد أحداث هذه الليلة، وكأنني إنسان أبله لا يمت بالجاسوسية لشيء، وكأنني سأكون منصتا ومستمعا وخروفا وديعا، وقد يكون لذيذا أيضا، وسأجعل من روزا لينا تلهث وراء خروفها الوديع بقلب لا يشبع أبدا من الركض حوله وخلفه.

السر الخامس

الحقيقة أعمق من السطح.. فلا تجعل المناظر تخدعك

الثوران.

كوبا هافانا منزل الدون ألفونسو خوان خوسيه الساعة السادسة مساء.

هوجمتُ تلك الليلة بكل الأفكار. كانت أفكار رجل شيطان وملاك أيضا، رغم أن شيطانيتي تتغلب دائما على حسي الملائكي، لأجل شيء واحد فقط، أن أبقي داخل عقلي الخبث لكي لا يخبث عليّ، فعالمي السوداوي قاهر وصعب ولا رحمة فيه، وليس لي من الخير نصيب أبدا إن بقيت كإنسان يعيش من الحياة لينتظر الخبز.

كنت قبل أن ألتقي روزا لينا، رجلا شهوانيا الى حد بعيد، تعجبني النساء، خاصة الجميلات منهن. ولكن، مهما كانت درجة جمالهن، فهن يصدقن بعض الكلام الجميل بل كله تماما، ويتعلقن به كسمكة لا طائل لها من التملص من سنارة حروفي وكلماتي ومعانيّ.

أجل. استخدمت جاذبيتي وسحري وشاعريتي، لأصل الى غايتي في أقصر مدة تستحق العناء، ورغم جمالهن ونزواتهن الثائرة، والتي أطفئها بناري التي تقتلع أجزاءهن، فلم يشف قلبي بحب إحداهن أبدا، رغم كثرتهن واختلافهن. لا واحدة أوقفت خط طريقي الثائر دون وجل.

الليلة، دخلت لأول مرة، لأكبر عائلات هافانا الأرستقراطية، منزل الدون بغض النظر عن كونه زوج مهزوز وحقير، ولكنه منزل يعج بأعمق الأسرار عن حكم الديكتاتور باتيستا والسلطة التي من همساتها داخل جدران قصره، تتحول الى تقارير ووثائق هامة جدا.

لم تدخر الولايات المتحدة الأمريكية أي سبيل لتمويل الديكتاتورية، نكاية بالزحف الشيوعي الذي بدأ ينهمر على كوبا بأكملها، أما هافانا فقد بدأت تغلي بحرب لعصابات ذات فكر شيوعي بقيادة الأخوين كاسترو وتشي جيفارا، والكل لا يثق في البعض، والبعض الآخر لا يثق في الكل.

بصورة مصغرة أيضا، ستجدون هذا هنا الليلة في القصر المدهش للدون ألفونسو خوسيه.

الذوق المعماري الإسباني الكلاسيكي، يأخذ اللب حقا، كثرة النافورات التي تسمع خرير المياه عليها، رائحة عبقة تسرح بالقلب المحترق فتزيده لهيبا، والفرقة الموسيقية الرائعة تضفي على المكان شعورا مخمليا ساحرا.

كنت أظن أنني الوحيد المدعو، ولكن ظهر هناك قادة كبار وطبقات اجتماعية طاغية عليها ملامح الغرور والتكبر والازدواجية الشخصية، المتمثلة في النفاق والرياء الاجتماعي.

ذكرتني بماضٍ ملعون، لعائلة ريتش هوفمن الألمانية، لتطفو في نفسي أحزانٌ غبر الزمن عليها، وتكشف عن كتابات أقدارٍ ما يزال صريرها موحشا في داخلي.

تذكرت كل شيء بأنصاف ذكريات، وتوالدت داخلي رغبة في لقاء فاتنتي روزا لينا، وفي لحظة، رأيتها جميلة ومشرقة كشمس تتفنن في الشروق، تتلون أطراف فستانها كلما تحركت فتبدو نجمة شهية البريق، وفجأة احتضنها شاب ما فراحت تقبله وتبتسم بترك يديها وهي تتخلل شعره.

أحسست بثورة غضب، لم أستطع تدارك نفسي بها، لتأخذني خطاي الخائنة إليها، وأنا كذلك أمشي، أحسست بيد صلبة تمسك ذراعي بقوة، لأعرف أنه الدون ألفونسو.

ان يهامس أذني، متسائلا إن كنت أحضرت له بعض ما كتبت، وطبعا

توقفت أبادله الحديث بعدما سكبت له من فتن الكلام قصائد حب حزينة وباكية ومرثية.

تصبب وجهه العجوز ابتسامات خالية من الحقيقة، مملوءة بزيف وحقارة شخصه، فلقد كنت أراه شيطانا يختبئ وراء اسم عائلته ونفوذه.

لـكنني كنت وأنـا أكلمه، أسمع ضحكـات هذا الشاب وأنـامل روزا لينا الـرقيقة تنـاغيه كصبي، وبينما أنـا بين هـذين الحـالين، إذ بي أسمعه يناديها أماه.

وهنا أحسست بغيث انهمر على حريق قلبي، وتبخر جوفه من غيرة خنقته دون هوادة في لحظات فقط.

في الحقيقة، أقلقني هذا الأمر، وهز روعي، وذكرني بحقيقتي وهويتي وما أنا به من عمل لا نقيض له ولا مرادف إلا النجاح أو الموت.

كنت أسمع ثلاثتهم، الدون والدونة والمنادي منذ لحظات لها بأمومة لم أتوقعها لدونا، ومن شاب يقترب من العشرين!

هل أنا أهذي؟

فروزا لينا تبدو صبية ندية، فمن أين لها بهذا الفتى؟

وبين تساؤلاتي، اقتربت نحوي مبتسمة يتأبطها ابنها الفتي، لترحب بي وتعرفني بابنها أنركي خوان خوسيه، ابن السادسة عشر وابنها البكر والوحيد، الحقيقة تفاجأت حقا فكلاهما يبدوان أخوين، وأنريكي يصغرها بخمسة عشر عاما فقط.

كان طويلا ووسيما جدا، تنتمي ملامح وجهه الى ملامح أمه الجميلة، وتحفه جاذبية شديدة نظرا لثقافته وروعة كلامه. تفحصته جيدا حتى لمحت بين لباسه الأنيق ساعة رائعة من أشهر الساعات السويسرية المزينة بحبات من الألماس التي ترسل بريقا كالنجوم الوهاجة في ظلمة الليل.

واستفتحت كلامي معه بالتعبير له عن تاريخ صنعها قائلا:

ـ ساعة شوبارد السويسرية، مدهشة وغريبة إنني أعجز عن تحديد تاريخ صنعها، هل هي مصنوعة باليد؟

نظر الى ساعته وابتسم ابتسامة عريضة قائلا:

ـ إنك رائع، كنت مصيبا في كل شيء. هل راقك تصميمها إذن؟

أجبته:

ـ أجل. تصميم رائع.. أنيق جدا.

لتقاطعني روزا لينا قائلة:

ـ إنه تصميمي، كانت الساعة هديتي لأنريكي عندما انتقل الى الجامعة. ومنذ ذاك الوقت وهي في يده لا يتركها إلا ليلا

ثم قبلته وعاودت الالتصاق به بقوة.

اهتزت أحرف من ثغرها الكرزي وهي تكلمني، فتسلل لقلبي خفق سريع مبهج كأنه نشوة خمرة.

كنت كعادتي محترفا في تمالك مشاعري، وإبقاء كم كبير من الثبات رغم أن الذي يحدث لي كان عالما وحده من زخم الأحداث الملحمية، لحب يكبر كلما وقعت عيناي على الدونا روزا.

انقضت ليلة رهيبة من المشاعر، من توتر شديد دخل يشجب خاطري القاسي، خاطري الذي تعوّد عقلانية فكرية عميقة، وازنتها روحي. عاطفتي، التي احترفت السيطرة وترويضها للعمل على مشروع، ومهمة دُربت عليها جيدا، من الزمن ومن الحياة الغامضة التي لا يلوح مستقبلها أمامي إلا وظهرت أقفاص تقسم طمأنينتي لشظايا لا عد لها.

مرت أيام والدون متأثر بعملي، تستهويه طريقتي ونمطي وأسلوبي.

ومرت أيام أيضا تقربت فيها من روزا لينا، بشكل ساكن وغريب، كأننا شيئان يتنافران لينجذبا كقطعتين من مغناطيس، كلما اقتربتا من مجال قريب، إلا والتصقتا دون نفور.

السر السادس

الحب الطريق الأول الذي يأخذنا للجحيم أو الفردوس

بعد ستة أشهر. هافانا كولومبيا 1957

ذاع صيت الدون ألفونسو، فلقد استعمل نفوذه وأمواله لإصدار ديوان شعري، وأصبح دون جهد منه شاعرا يُحتفل به ويكرم بجوائز كثيرة، كان سعيدا وأصبحت كثمن لهذا من أحد أقرب مقربيه، ومحط ثقته وكاتم أسراره.

الحقيقة أسراره كانت مدهشة ومثيرة، وكشفت عن وجه آخر للدون لم أتوقعه منه، لأنه في نظري كان إنسانا حقيرا لا يمت لأي فكر بصلة، إلا بفكر المال والانتهازية والوضاعة.

كنت في أحد الليالي معه بعد أن نال جائزة أشعرته بتخمة الغرور، وأصبح لعابه نحوي يسيل لما وجده مني من بغية، طالما تمناها ورجاها دون سبيل.

جلس يشرب كعادته، ونظر لي وهو يجلس مقابلا لي على كرسي مكتبته أمامي، ليهامسني مبتسما ابتسامة ماكرة فيفصح عن سر كان بداية غريبة لبقية أسراره.

لقد تكلم بكل وضوح عن خسارته الكبيرة، لمبالغ طائلة في سبيل المساهمة في تمويل بعض العصابات، للنهوض بثورة ضد باتيستا.

انبهرت حقا! وكشفت عن وجه آخر للدون، لم أتوقعه منه، لأنه في نظري كان إنسان انتهازي لا يمت لأي فكر بصلة إلا ما هو عليه.

والواقع المثير، أن الدون ألفونسو طالما اشتهر بمساندته لحكم باتيستا، ولطالما كان مقربا من الطبقة الحاكمة بل يعرف أعمق أسرارها

ومخططاتها قبل الجميع.

لهذا فالكل كان يحسب لكلامه ألف حساب عند مخاطبة الدون، ولا يفصح أحد أمامه عن انتمائه الفكري أو السياسي.

المفاجأة، أنه كان أكبر عدو لنظام الحكم أيضا! هذا الواقع المغاير لحقيقة مظهره الذي لا طالما أفصح عنه.

ولكن سره العميق، أن الدون لم يكن مع أحد ولا مع أي فكر، فلقد استخدم أمواله لإرضاء الطرفين ثم الانتقال الى الطرف الأقوى والمنتصر، ليضمن بقاءه وبقاء امبراطوريته دائما دون خسارة أحد.

كانت طريقته ازدواجية ماكرة وخبيثة، وعملة بوجهين لا أمان لجانبه أبدا، وبالرغم من هذا تراه انسانا ناجحا في حياته، فلديه كل شيء إلا الأخلاق.

وأهم ما امتلكه دون استحقاق كانت زوجته روزا لينا، لقد امتلك امرأة امتلكت قلبي وغرست فيه صورتها وذكراها وحبها الذي يكبر كلما رأيتها.

في كل تلك الأيام معها، لم ألمسها. لم أستطع أن أكون سافلا كالعابرين في حياتها. كان كل الذي أقدر عليه منها، شم أريج هز كياني وأضاف للوعتي بها كتلا أخرى من الغرام والتَّيْم.

أما عرض الدون ألفونسو المخزي بعلاقة مع زوجته مقابل أشعاري، قد جعلته في نظري ساقطا في أعماق سحيقة من الخزي وقلة النخوة.

ليس فقط لأنه زوجها وكان الأجدر به حمايتها، لا. بل لأن قيمة الدونا روزا أرفع من كل هاته الدنيا في نظري وتقديري.

سرتُ أياما كثيرة إليها لأسبر روحها النقية، الى غاية أن عرفت حقيقة الإنسانة التي تحيا بين ثنايا عقلها وعمق روحها.

رأيت روزا لينا البسيطة، الجميلة، الأم، المرأة، الرقيقة، والراقية.

تعرفت عليها دون أن أترك أثرا لنظراتي التي سرقتها من الزمن والمكان

والحياة. كنت غامضا بطريقة أعلم أن المرأة تعشق غموضها وأعلم أن طريقي إليها سيكون طويلا وصعبا ولكنه يستحق النضال.

حتى جاء ذاك اليوم، حيث ستغلب عقلية الجاسوس على يد امرأة لم تتعمد فعل هذا ولم تفكر به بأي شكل من الأشكال.

ذلك اليوم اختلف كثيرا عن بقية أيامي، وأصبح بذاته وأحداثه عتبة علاقتي بروزا لينا.

بدأت بليلة كانت في منزل الدون، كان في عادته القبيحة يموج في خمرته، وعندما بدأ الصباح ينثر وهجه، كنت لا زلت في مكتبه. وضعته على الكرسي، بعد أن فقد وعيه على الأرضية داخلها من أثر الخمرة، وعندما تأكدت من غيابه عن الدنيا، استغللت الوضع للبحث في مستنداته المهمة داخل درجه السري الذي لم يعرف أنني استطعت معرفة مكانه مع تلك الأيام، التي أفصح لي فيها عن أسراره لحظات خمرته ومجونه.

وبينما أنا كذلك، سمعت وقع أقدام سريعة ثم وقع ارتطام شيء ما، ولكن ما كنت أدركه جيدا أن فوق مكتب الدون مباشرة غرفة الدونا.

لملمت كل شيء بسرعة وتنازلت عن فرصة متاحة، وأسرعت بخفة نحوها لأجدها تتخبط في معركة شرف بينها، وبين نذل من أصدقاء زوجها.

كانت مضرجة بالدماء بعد أن ضربت على رأسها ضربة قوية أسالت دماءها، والحقير كان يحاول النيل منها، ولكن أسقطه القدر بين يدي وأصبح ميتا لا محالة.

لقد تبخرت شخصيتي أمام دماء محبوبتي.

وأصبحت لا أفقه شيئا. لا أعرف حقيقة شيء، سوى قتله بلوي رقبته بين يدي في لحظة عمى الغضب والحب فيها أي عقل.

سقط ميتا لا روح داخله. كانت روزا لينا قد رأت ما حدث فلم تتكلم

بحرف واحد، لكن دماءها ودموعها تمازجا فوق وجهها الطفولي.

تركت جثة القتيل وتوجهت نحوها لأرى عمق جرحها الذي كان غائرا على رأسها، رحت أبحث عن أي شيء يوقف نزيفها لغاية أن وجدت في خزانتها شالا لأضعه عليها وأمسح وجهها فيستعيد ملامحه الملائكية.

نظرت لي فجأة وقالت:

ـ هل مات؟

أخبرتها وأنا أنظر الى عينيها وقد تمزق قلبي على كل قطرة دم منها، قد غادرت جسمها، بأنه قد بات جثة لا روح فيها. ولكنها كلمتني قائلة:

ـ أتركني واهرب. اذهب أرجوك.

التفت الى الجثة قائلا بعدها:

ـ وهل سأترك هذا هنا؟! لا بد لي أن أتصرف.

وقفت قائلة وهي تمسك رأسها بشالها:

ـ لا تهتم غدا سيكون كل شيء بخير، أخرج الآن، ولكن ليس من هنا، تعال.

فتحت باب خزانتها وأزاحت ثيابها على جهة اليسار منها، ليتكشف لي باب صغير، فتحته وأمرتني أن أتبع الأدراج وسوف أخرج الى طريق آمنة وأن أعود غدا كباقي الأيام الأخرى.

خرجت فعلا تاركا ورائي الدونا روزا وأنا أعلم تماما أن كل ما قالته لي، سيتحقق غدا، وستكون كل الأمور بالفعل كأنها لم تكن حقيقة خضناها بمعركة دامية، وإنسان نال حتفه لخسته.

مرت تلك الليلة أفكر فيها بروزا لينا، بما تفعله الآن، فقد كنت قلقا عليها، فكرت أيضا بذلك الباب السري وما إذا كان الدون يعلم به، أم أنه صنيعتها وتدبيرها.

مر ذلك اليوم وجاء موعدي للذهاب الى سهرة في منزل الدون، وعندما دخلت، وجدت كل شيء كعادته، فتشت بعيني عن روزا لينا بينما كان الدون ينتحب بخطابه السياسي المنمق والمنافق، عن بعض أحداث الشغب التي تحدث في هافانا وبعض القتلى مع نخبة تضم وزراء الحكومة وأغنياء أغنياء العاصمة. أما أنا، فقد كنت أخاطب نفسي متمنيا لقاء الساكنة قلبي، وبينما أنا كذلك، حتى رأيتها تخرج أمامي، وقد أطلقت شعرها الأسود الطويل على جهة واحدة مخفية جرحه وأثره.

ابتسمت لي، واقتربت تحييني، وبعد ذلك وقبل أن أسألها أخبرتني أن الدون تكفل بإخفاء كل شيء، دون أن تعلمه أنني كنت حاضرا وموجودا، وأنها حسب اختصارها زعمت أن القتيل كان يريد أذيتها فدافعت عن نفسها لينتهي به المطاف بالسقوط على الدرج والتواء رقبته، فانتهى موضوعه كأنه لم يكن، بأمر من زوجها الدون ألفونسو.

تلك الليلة غيرت علاقتي بروزا لينا، وجعل هذا السر منا شيئا مقربا ومشتركا.

أصبحت بعد هذه الحادثة، أراها بشكل عاطفي أقرب، كما رأتني أعمق مما أراها. كان حدسي الذي لا يخطئ يخبرني أنها أصبحت قاب قوسين لتدنو مني بشعور جميل وصادق يماثل شعوري بها، لتخبرني دون إقرار صحيح منها أن قلبها لا يفيض إلا بي، وأنها أصبحت متيمة بشاب في أول طريقه كما كانت تراني.

كنت بالنسبة لها رجلا خاطر بحياته لأجلها، وهذا شيء افتقدته في زوج يبيع جسدها مقابل مصالحه ونفسيته المريضة، كنت في نظرها كمن انتشلها من الحقارة والعفن، إلى شيء آخر اسمه الحب الذي لم أره في جسد ولا شهوة، بل رأيته في غرام لروزا لينا المرأة، وفي روزا لينا الطفلة.

بعد شهرين من الحادثة، أصبحنا روحين عالقتين في روح واحدة، لقد أصبحتُ متيما بها، وأصبحتْ غارقة بي. لم يمض يوم إلا وكتبت لها أشعاري ووصفت لها صبابتي وولهي. ولم يمر يوم عليها إلا وجعلتني بين أغانيها كروح لكلماتها وصوتها الغارق في الحنان.

وكيف لا؟! فكل كلمة كتبتها أو قلتها كانت منها ولها. فقد أصبحت ملهمتي وكل حياتي.

أصبح الوقت ليس له معنى أمامها، أصبح الزمن يخطئ في مضي ثوانيه ودقائقه وساعاته، وُضعت أنا داخله معها، وبدأت أفقد مع هذا الحب والشغف حذري وعقلانيتي.

الحب. الحب شيء لا يرادف العقل، ولا يكون إلا عقلا ساذجا وبسيطا.

وفي ظل الظروف والتحولات التي تمضي على كوبا وهافانا خاصة، صرتُ أعرّض مهمتي وقبلها روزا لينا ونفسي للخطر.

بدأت أفكر كثيرا. فكرت في الهرب معها فزوجها لن يتركها، حية أو ميتة، ولكنني كنت أعلم أنه لا مفر لي، فالعملاء ليس لهم حياة يختارونها، وليس لهم عالم كعالم الناس والبشر.

ومضت عليّ أيام أرهقتني وأزهقت تركيزي وعقلانيتي. الحب ضيعني وغيرني بهزة نفسية عميقة.

ذلك الوقت تمنيت، بل عزمت على الهرب مع روزا، حتى جاءت ليلة سوداء أخلطت كل شيء.

السر السابع

التحرر من الشهوات يشبه ألم الانسلاخ لكنك ستكون انسانا جديدا

الجريمة
كوبا. هافانا أواخر كانون الأول 1957
قصر الدون ألفونسو خوان خوسيه

الوقت العاشرة ليلا.

لكي تكتمل مهمتك بنجاح، يجب عليك أن تخطو أول خطوة ناجحة وصحيحة فيها، وهي أن تتعلم الصمت وتتخذه جزيرتك ووطنك، فقد أدركت أن أحفظ أهدافي لنفسي، وحلمي بين أضلاع صدري وفؤادي.

فكم من حاسد وعدو ومتربص بك، أو بشيء يتعلق بحياتك وشخصك من قريب أو بعيد، سوف يسيؤه نجاحك، وحتى أحلامك التي لا يريدها أحلاما متألقة، تغدو أمانيه أمامها حقيرة وصغيرة.

كنت تلك الليلة سأصبح مغرما ومعتوها، لأفكر في استفزاز الدون ألفونسو أمام كم المعلومات المثير الذي جمعته عنه، وددت أن أبسط كل أوراقي التي تحولني الى ساذج، يقتلع حبيبته من فم الوحش، بريشة صغيرة تدغدغ بها قدميه، ولتسقط طريدته بين يديّ.

وكنت بعدها سأتنصل من كل شيء له علاقة بعملي وهويتي، ورغم أن حبها اقتنص كل عقلانية ميزتني، إلا أنني خططت لطريقة أنال فيها الدونا روزا وحياة أتخلص منها من كل ماض بالسفر لعقر دار الأعداء آنذاك وبالضبط الى الاتحاد السوفياتي.

ولكن الأقدار تدخلت وغيرت مسار كل الذي رسمته. وبلحظة اقتلعت قلب حبيبتي، لينزع فؤادي معها ولأجلها.

سهرنا كالعادة بمفاخرة الدون المغرورة، لديوانه المسروق من قلبي وأحاسيسي وصهيب مشاعر لتذوب على لهيب الاستحالة والشجن.

كانت التصفيقات والإعجابات تسري بين الحضور، أما أنا فقد كنت أسمع صوته الأجش والخشن، يكسر به تلك الكلمات العميقة والرقيقة والصادقة.

فكرت قليلا، فهذا زاد من تصميمي على قرار كنت قد اتخذته وانتهى الأمر.

كانت روزا لينا تسرق نظراتها إليّ، فتزيد من شغف أشعلته الاستحالة وزاده الممنوع تحديا وسطوة.

كانت موسيقى السالسا هي الطاغية برقصاتها ثم بدأت موسيقى البولي رو مع ذلك الهرج والمرج. وفي لحظة واحدة توقفت وسكن كل شيء، وسط عيون العازفين المشدودة والمتوقفة عن أي رمشة واحدة صوب اتجاه واحد أيضا.

استغرب الجميع منهم، بعد أن ساد صمت غريب ومخيف فجأة، وكسر الصخب الذي كان، ليوجهوا نظراتهم إلى حيث أنظار العازفين الميتة، صوب ذاك المكان الذي كان أعلى درج القاعة الكبيرة التي كنا فيها.

حتى أنني كنت معهم أرى منظرا عرفت من خلاله أن أمورا كثيرة سيئة ستحدث لروزا لينا، وستتغير معه حتى أعماقنا وأحداث أيامنا ولياليها.

كان ابن روزا لينا الشاب الفتي، مضرجا بدماء تتدفق من سكينة مغروزة في جهة قلبه.

يبحث بعينيه الصافية عن مكان أمه، مترنحا بين يدي الموت ولكنه قاومه بشجاعة لتكون آخر نظراته لوالدته الحبيبة.

ليسقط أنريكي من أعلى الدرج لأسفله جثة مضرجة بالدماء؛ مضرجة بروح فقدت من جسد، لا زال على أول عتبة الحياة وضجيجها، تاركا أما احترقت من الفؤاد لما تبقى منها الى هكذا ألم وهكذا حطام.

يا أسفي عليه، وعليك يا حبيبتي، يا أسفاه على هكذا فقدٍ وهكذا ألم.

ارتعبتُ من هول ما رأيته، وسرت في الجميع أهوال المنظر، وكنت معهم كأنني طفل خائف من غول يتسرب خلسة بين الأركان المظلمة والمعزولة.

أحسست بفتق في قلبي، وشعرت بألم أعظم مما أحسسته يوما في حياتي.

ركضت نحوها وهي تضرب كل من يقف أمامها، مسرعة بخطى مثقلة بزمن ليته يرجع للوراء.

وحينما وصلت إليها، كانت منكبة على ابنها تتمزق وترتجف.

نزلت أرضا وأخذته منها وقلبته، ثم تحسست دقات قلبه من معصمه لأجده فارق الحياة، لم استطع النظر في وجهها وإخبارها الحقيقة، ولكن غريزتي جعلتني أفتش جثته، فكان بين أصابعه بعض الشعر الأحمر، كأنه مقطع بين يديه.

كنت قبلا قد تفحصت جيدا أنريكي فعقلي تدرب على فحص كل شيء يحيط بي، كما أن عملي يستوجب التركيز على دقائق الأمور وصغائرها.

كنت أدرك أنني رأيت ساعته (شوبارد) التي تزينها بعض الماسات الجميلة في معصمه، وما عرفته أنها هدية روزا لينا إليه فكانت لا تفارق معصمه إلا وقت نومه ولكنها قد اختفت.

أحسست أن هناك شيئا ليس في مكانه، فهناك مع الشعر الطويل الذي بين أصابعه يوجد قرط ماسي يبدو باهظ الثمن، لا بد أنه كان نتيجة مقاومة قد حصلت، بين أنريكي والقاتل.

وهذا ما أكد لي أن نصاب الدلائل لا تخبرني بمعالم الجريمة الحقيقية.

شممت يديه كانت معطرة بعطر قوي، ولكنني لا أظن أن القاتلة امرأة أيضا، ليبذل أنريكي كل هذا الجهد في مقاومتها والدفاع عن نفسه منها بكل هذا العنف والقتال.

كان السكين مغروزا بعمق، فأي يدين ناعمتين تمتلك كل هذه القوة يا ترى؟!

رفعت بصري من على جثة أنريكي، لأتمعن في كومة المتفرجين التي تدافعت حتى أنها لم تترك لي مجالا لرؤية شيء.

كنت افتش في عيونهم، التي اختلفت مشاعرها وتصببت بينها أسئلة وحزن وشماتة ورثاء، وكل كان حسب ما يضمره يتكلم.

أما روزا لينا، فقد فهمت أن ولدها قد فارق حياتها قبل حياته، وأصبحت جامدة باردة اختفت بين ملامحها الرائعة، بسمة لطالما زينت أنجم ثغرها ومبسمه.

أحسست أن ريقي أصبح جافا، وانفطر قلبي عليها، اقتربت منها وأمسكتها لتقف، فوقفت دون أدنى حركة أو ردت فعل، كانت تستجيب لأي أحد يقودها، وأصبحت شاحبة لا حراك فيها سوى عينين ترمشان وبعض من الأنفاس التي تقاوم للخروج من صدرها المكلوم.

ارتعبت من منظرها، رغم أنني أعذرها وأقدر مدى حزنها على ولدها ووحيدها، الذي كان يشبه كل شيء فيها أكثر من ابن الى حد كبير.

تلك الليلة كانت صعبة على نحو مدمر ومؤلم. أمرٌ سكن وغير روزا لينا إلى أبعد الحدود، استسلمت به لكل شيء سيء أو حزين أو حالك ومظلم.

أما الدون فلم يؤثر موت أنريكي عليه أبدا، فتلك الليلة كان بارد الأعصاب كعادته فهو دون قلب، عيناه عميقة الظلام كاسحة الغموض، وصدره هادئ

وثابت. كأن من مات كان حشرة قد هشمها بنعله دون اكتراث.

أي قلب هذا؟! أي قسوة دمرت أركان روحه؟! فبات لا روح فيه ولا حياة أخرى تعنيه غير مجده وسطوته ونفوذه الرهيب، وإن كان الميت ابنه الوحيد.

أما حال الحبيبة فقد كان صعبا، لدرجة عظيمة. تغيرت كثيرا، أصبحت هزيلة شاحبة تشققت كخطوط رقيقة ملونة بدماء من شفتيها الكرزيتين، وبت محموما بحزنها ومصابها، وبت لا أستطيع فراقها ولا البقاء معها.

واستمر الوضع كذلك حتى مر على موت أنريكي أكثر من شهر، وأصبحت الدونا روزلا تشرب إلا من يدي كما لا تأكل إلا لقمة تضمن لها بعض الأنفاس ليوم واحد لا أكثر.

كنت أدخل ليلا الى غرفتها، من باب الخزانة الذي هربتني منه ذات ليلة، كما أصبحت أخرج منه عند انبلاج الفجر.

ولكن كان لمهمتي أسنان أخرى تهضم مراحل عملي وتقارير ومعلومات كان لا بد لي من تسليمها حتى وإن لم أتحصل على شيء.

وهذا وتّرني ووضعني تحت ضغط كبير، وتفكير مستمر لا يهدأ.

كان عليّ إدراك الوقت الذي مر دون أن يترك أثرا هاما يصوب مساري وهدفي الذي جئت لأجله، وبدأت مع كل هذا أمورُ كوبا تتغير والثورة ضد حكم باتيستا تشتعل، بحرب عصابات ستبدل مسار هذا البلد كليا.

وفي الليالي التي كنت أهرب من كل عالمي الحالك، وقبل انبلاج الفجر بساعة أغادر الحانة عبر الغابة لأذهب الى حبيبتي روزا لينا.

كنت أريد أن أتغير معها أن أغيرها، أن نهرب من ذواتنا لذات حب واحدة فتتقدس أمكنتي ويتبخر السواد داخلي كأنه لم يكن.

السر الثامن

تغير ليتغير حولك كل شيء.. حب في جبال سييرا مايسترا

بعد ستة أشهر بداية حزيران 1958.

زمن الحرب الحقيقية بدأ. ضيّق الديكتاتور لفولجينسيو باتيستا على كل شيء، واقترب من عد الأنفاس على كل واحد في كوبا، وازدادت شعبية تشي جيفارا والأخوين كسترو لتصل الى كل مكان في هافانا خاصة في الأرياف والمدن الصغيرة حيث استوطن الفقر وعشعش. وأصبحت الشيوعية شيئا كالمعتنق والديانة في قلوب الكوبيين، وكأن راؤول وفيدال كاسترو وتشي جيفارا منزلون من السماء ليخلصوا شعبا تألم من حكم ديكتاتور عسكري رهيب.

صارت حانة ماريا لويزا تخلو تقريبا من الساهرين فيها كما السابق. وأحيانا كثيرة يتم اغتيال بعض المرتادين عليها، فكف الكثيرون عنها وبدأت لا أكثر من التردد عليها أيضا.

شغلني التفكير بحالة روزا لينا جدا، وبدأت أفكر في حالتي أيضا، فكلانا أصبح رهينة الماضي، ينهبه الحاضر ويقيده المستقبل الذي لم يأت بعد بأغلال ثقيلة.

تلك الأشهر الست التي مرت على روزا لينا وعلي، كانت سيئة ومحبطة وكئيبة يملأها ضغط مهول. ودعت لأفكر جديا في الهرب من مهمتي وأخذها، بعيدا عن قصر الدون ألفونسو، خاصة بعدما أصبح هستيريا ويتصرف بطيش وقسوة شديدين معها.

كانت تدور خواطر شتى في عقلي المنفصل الآن بين قرارين، ولكنها لا تستقر على حال أبدا. فعالم الجواسيس والعملاء بما كانوا يعرفونه ويجب أن يعرفوه، سيكفل قتلهم وتصفيتهم قبل أن يفكروا حتى في ذلك.

ولكن ما تملكني من التراخي، أحسته القيادة المخابراتية، وأكدت لي أنه يجب أن ألغي مهمتي في أقرب وقت يتاح لي.

فالشيوعية تغزو كوبا بدرجة متسارعة وعميقة، وستكون عملية اخراجي من هافانا صعبة للغاية، أمام هذا الموج الثوري الذي أغرق الكوبيين بأسرهم. لكنني تجاهلت أوامرهم بقرار لا رجعة لي فيه.

كل يوم كان لا يمضي إلا واقتربت فيه نهاية الحكم عسكري لباتيستا، كما يقترب الخطر نحوي بكل قوته.

أصبح باتيستا يتصرف بعدائية أكبر، وازدادت حملات الاعتقال التعسفية، دون وجه حق الى درجة أن الأطفال لم يسلموا من الاعتقال أيضا، وهذا في سبيل وقف مد شيوعي كاسح سيغرق كل شيء في كوبا ويغيرها جذريا.

حتى وصل الحد الى أن اقتنعت بوجوب الهرب مع روزا لينا والخروج من هافانا بأسرع وقت ممكن.

ولكن للقدر دائما كلمته، التي يسيطر بها عليك ويغير مسار تاريخك وقرارك وكل ما خططت له في لمح البصر. هذا هو القدر بعينه. أن ترسم طريقا، لتجد نفسك مأخوذا بتصنيف آخرلأحداث لا قبل لأحد بها.

دخلت عليها غرفتها. كانت الساعة الثانية فجرا، وضوء القمر يمضي عبر ستار أبيض رقيق مخرم يتمازج فيه مع الضوء الساطع، ليغير لونهما، فتبتهج النفس. وكانت هي كعادتها تسرح في عالم أنريكي حسبما أظن.

ولكنها عندما رأتني، سارعت إليّ واحتضنتني، لأول مرة بقوة شديدة، وتكلمت معي بلهفة لم أعهدها سابقا منها، نظرت لي مبتسمة فازدادت

جمالا ومسح ضوء القمر على ملامحها بياضا وبريقا وقد وضعت عطرا قويا كاد أن يصيبني بالاستسلام لمنتهى شوقي ورغبتي بين يديها.

وعندما نطقت ببعض الكلام، صغر كل العالم في نظري، وتجردت من بشريتي لأصبح ملاكا له مئات الأجنحة، فأحضان الحبيبة الدافئة جعلتني أجمل من كل مخلوق بشري جميل وبهي، وكلامها أصابني بالارتجاف. أقسم أنني أصبت به، فكلي تغير لدرجة الانسلاخ وهاجمتني السعادة دون رحمة، فمات شيطاني حرقا بنار ووهج كلماتها.

لم أعهد هذا من محبوبتي روزا لينا، لم أتصور أنني سأسمع من هذه الروح البديعة كلاما عن شيطان في جسد انسان، لكنني غفرت لنفسي بشرط أن أترك جاسوسيتي تغرق في بحر النسيان والتيه، وتظهر بين ملامحي رجلا عاشقا يترك كل العالم لأجل حبيبته.

نظرت لها وفي خضم ذاك أردت تقبيلها بكل قوتي، أردت أن أعرف طعم قبلة مسروقة من ثغر الغرام نفسه، وأتشرف برشفة تجعل الفؤاد كليلا وهزيما لمحياها الجميل.

لكنني أبيت على نفسي هذا، وأردتها أن تكون حرة لتنعم بقبلتي التي لا أسرقها من تحت اللحاف.

انسللت بخفة من بين أحضانها كأنني أسلخ جلدي وأنا حي، وقبلت يديها قائلا، وقد تصنعت غطرسة السيطرة الذكورية على مكان لا يحتويني شيء غير مكان حضنها:

ـ روزا لينا. قد تكون آخر ليلة أزورك فيها عبر هذه الطريق. نظرت لي وقد سطع بريقٌ من عينيها أكثر من بريق القمر نفسه، واقتربت مني مجددا واضعة يديها حول عنقي وثغرها يقترب من ملامسة ثغري، فأصابني ما يفتت أنفاسي ويحللها، وربما أخال نفسي أن كلماتها ولمساتها واقترابها مني كل

هذا، سيجعلني أعيش، ويغنيني كفاف الأنفاس تلك.

بدأت أضعف أمام جسدها المضيء، وبدأت أنهار كجبل هزته زلازل وبراكين، وبدأت أحس لأول مرة بحب حقيقي وبحاجتي لامرأة واحدة في الكون كله، بعدها لا أرى أخرى أمامي، ولا أعرف عن النساء شيئا لأنها كلهن وأعظمهن.

لكنني أوقفت كل تلك الغرائز والأحاسيس، وعاودت الانسلاخ منها مرة أخرى فكان الألم أشد وأبرح، فقلت:

ـ أريدك حرة، لأنني أريد تملكك، لن أسرق ليلتي وأنت باسم أحمق لا يستحقك.

أصابها دمع تدلى على وجنتيها الموردة، وبعد أن طأطأت رأسها، رفعته ولحقتني ممسكة قميصي من الخلف قائلة:

ـ لكنني أشتاق لك، أتحرق لحضن منك ثم أموت، إنني أعشقك يا أدريان. أحبك رغم كل ما يحيط بي من ضجيج الهمج وحبهم الذي يقرفني بنظرة واحدة منهم، على جسد يتمنى أن يلمسك كلك، وبعدها فليحدث ما يحدث.

استدرت لها، وكنت محموما بكل كلماتها، أحسست بامرأة تفتنني جنتها بكل حرف، لتتوارى كل الدنيا في لحظة ضعف وشغف، وأضعف أمام إصرارها بقبلة قسمت روحي لقسمين، ونقلتني من عالم الخرف الى عالم حقيقي ممتع وخالد، ولكني كنت أعرف أن الطريق إله طويل ودام وعذابه لا يطاق.

عرفت أن روزا لينا لن تتوقف، وسأغدو كمثلها، أستعمل غرامي لنسيان قوة ألمي، وإن فعلت هذا فقد خسرت كل شيء وأولها حياتي وربما حياة غاليتي.

وبعد أن أحست روزا لينا مني مقاومتها، توقفت وبدت مجروحة ومتألمة،

لكنني داويت أمري ببعض كلمات الحب وحضن كان من عمق احتياجي لها، ولكنها استغربت مني صنيعي معها وقالت:

ـ هل مللت مني؟ أم ضقت بحزني ذرعا؟ أم أنني لا أشفي حبك بشيء؟

اقتربت منها أكثر، وتمعنت في وجهها الملائكي المنير، كأن بعدها سأنتهي وأندثر، وسمحت لنفسي أن تتغلغل أناملي الملطخة بالدم، متعمقة في طهارة خصلات شعرها الأسود، ثم رفعت بعضه من على جبينها قائلا بعد صمت كاد يجرني لممارسة رجولة ليس لقلبي عليها بسلطان:

ـ لو تعلمين ما معنى وجودك في حياتي! لتبصرت ما يحدث لي يا روزا لينا، لرأيت أنك شيء اسمه الروح بالنسبة لي، وأن الحياة عندما تحرمني من الشعور، فأنت من تعيدينه إلي، كأنه هدية السماء.

أريدك أن تعلمي أن حبي لكِ ليس حبا شهوانيا كما اعتدت الشعور به مع الكثيرات اللائي مررن علي. بل إنه هيام بك عفيف وفوق كل خطيئة مهما كنت خطيا.

ترملتُ كل حب دونك، ودونك يا صفيتي لا حياة لي، فاستبشري، لا بعدك غرام يا نور الحياة.

تبسمت وسكنت بين يدي وهدأت أنفاسها، وبعد هنيهة انسحبت من مكانها القريب جدا والملتصق بي، لتجلس على سريرها وقد أمسكت جميع شعرها المسدل عليها، مرجعة إياه جهة واحدة بطريقة فاتنة ثم عاودت الاستلقاء على سريرها بعد أن امتلأ خداها دموعا قائلة:

ـ هل تعدني يا أدريان؟

جلست جانبها على سريرها وقلت:

ـ كل الذي تطلبينه هو مقدس بالنسبة لي.

جلست بعد أن كانت مستلقية، واقتربت مجددا قائلة وهي تضع يدها

الجميلة على كتفي:

ـ لا تتركني، وإن توسلت لك أن تفعل لا تتركني، فأنا دونك ميتة لا محالة.

نظرت لها وقبلت يدها، وأردت النزول أخيرا، لقضاء مهمة جمعت بين عملي وقلبي، قائلا:

ـ الآن سأخرج، وأرجع غدا ليلا كالعادة، لكنني أريد أن أطلب منك شيئا حبيبتي.

شددت انتباهها، ونظرت بكل اهتمام وهي تتلمس وجهي بأناملها البيضاء الناعمة والرقيقة قائلة بصوتها الدافئ:

ـ طبعا. وإن طلبت أن أرمي نفسي من جبال سييرا مايسترا لفعلت هذا دون تفكير، يا قلبي.

ابتسمت فرحا بقولها، لأنني أحسست بعمق حبها الذي شفاني من ورطة الحياة ومشاكلها قائلا:

ـ أريدك أن ترجعي كسابق عهدك، مرحة مشرقة ولتكن غدا ليلة سهرة كما كانت ليالي الدون ألفونسو.

ـ هل تفعلين هذا لأجلي؟

ـ سأفعل. ولنلتقي ليلة الغد كما كان العهد يا أدريان.

خرجت تاركا إياها، وأنا أعتصر رغبة وشغفا، أقاوم حبيبة لا ند لأحد عليها بين يسراي الذي بين الضلوع، أتحرق ليوم يجمعني بها دون حاجز مهما كان شكله وسيطرته.

تلك الليلة جمعتني بالوحيدة التي أعشقها على وجه الأرض، دون أن أترك لشهوتي النجاح في إفساد حب لن يدنسه بغيٌ على أي معتقدات سماوية على الأرض.

كانت أوضاع كوبا سيئة وهافانا تقريبا في حرب وكل شيء ليس في مكانه

وموقعه، كما حالي أنا، ووضعي كان لا بد له من ترقيع وضبط، وإلا سأفشل من مستوى وجودي كإنسان الى مستوى فكري الذي لا بد لي أن أستعمله للخلاص من مصير مجهول ونيل مرادي بحصولي على روزا لينا كزوجة وامرأة لي وحدي.

تحديت نفسي، لأصنع لنفسي تاريخا أريده، فقد كنت أريد موتا عظيما، والآن أريد موتا عظيما مع حبيبة مدهشة.

تقدس ذكرها داخلي وبين كلي، والآن تراءى لي هدفان، يكملان بعضهما فلا حيلة لفصل أحدهما عن الآخر.

لم أنم تلك الليلة، وقد بدأت برسم خطتي وتفاصيلها، خطوة خطوة، وكنت قد جمعت ما تيسر من معلومات على حركة تشي جيفارا والأخوين كاسترو، وبدأت أعرف أن أغلبهم قد تحصن في جبال سييرا مايسترا، وليس لي من نجاة إلا الهروب هناك، لكنني لن أنتزع روزا لينا من الدون ألفونسو إلا بموته، وهنا أرسلت رسالة للمخابرات الأمريكية، كتبت في فحواها أن الدون هو عميل مزدوج ويتلاعب بالطرفين في سبيل مصلحته، وقد كانت هذه حقيقة بالفعل، قد صرح بها هو نفسه لي بعد أن كان يموج في خمرته وبذاءته.

أردت أن تتكفل المخابرات بالدون وتخلصني منه، وإلى غاية ذاك الوقت سأكون كعادتي شاعرا يهيم بين الكلمات وفيها أرسم وجه حبيبتي بأحرف تصف كلالتي ومحنتي بها.

وبين تلك الأيام والليالي القليلة المتذبذبة، بدأ التوتر يزداد في هافانا، يزداد الموت والخوف وعدم الأمان، أحسست بحركة غير عادية واشتقت لروزا لينا، كنت أراها بين الحضور كأي غريب وبدا أن الدون ألفونسو كثير الاهتمام بها وملاصقتها في أي مكان تذهب إليه خاصة هذه الأيام، فظهر عليها التوتر

وعدم الراحة. وكلما حاولت أن أعرف سبب هذا إلا وتجاهلت الأمر بشكل غريب، وتكتم لا أفهم له مغزى ولا سببا.

إلى غاية أن نفذ صبري، فقررت الدخول عليها عبر الطريق السري المعتاد لسؤالها.

عندما وصلت حاولت فتح الباب المؤدي الى غرفتها، ولكن الأمر استعصى علي، وبدا لي أن هناك ما يغلقه بصلابة ومتانة.

ولكن كان هذا بسيط الحل، ومشكلة لا ثقل فيها، أخذت سلكا مخصصا من ولاعتي، وفتحت الباب بعد ثوانٍ لا أكثر، متجنبا إصدار أي صوت، ولما نجحت بدخولي الخزانة، وأردت فتح بابها، سمعت صوتا يصدر من غرفة حبيبتي، فتراجعت قليلا وأحسست بوخزة في قلبي جعلتني أتردد في رؤية ماذا يحدث بين جدران تعيش فيها الحبيبة وحيدة، ولكن لا بد للعطش من شرب ماء الكأس، وإن كانت عذبة أو مسمومة. باختصار لا مفر لي من هكذا قدر.

تلصصت من فتحة المفتاح لأجد ما يريعني ويذهب كل حكمتي، وتذوب مشاعري كقطعة ثلج على نار لا ترحم شيئا.

لقد كانت في غرفتها نائمة مع آخر والآخر زوجها بطريقة قطعت ذاتي، كأنه لا يحق لها ذلك، كأنه محرم عليها منطقها والمنطق الوحيد الذي أعترف به منها هو أنا، تجردت من غضبي نحو الألم واكتسحني برود في مفاصلي، وحرارة في قلبي، أحسسته يشتعل ويتكون شمسا حارقة أضخم من الأرض التي نحن عليها.

ما أمر الغيرة! ما أنكلها! لقد نكلت كل عقلانيتي بسوء الأصفار، ولكمتني على عيني التي أرى بها فما عدت أرى.

نمت هناك في مكاني الموءود بالشجن، وغصت بين دموع روزا لينا، كانت هي تبكي وأنا أبكي، وهي لا تدري بما كان بي.

كل منا يتحطم على ساحله، ولا منارة تضيء مصيري المجهول الميت دونها لا محالة.

نمت تتسلق الأحلام المضطربة إلى خلدي، أشكو حالا يتصبب ألما، حتى أحسست بعطر يحرك ذاتي.

يذكرني وسط أحلامي العابثة بوهج نور يسعدني حد الثمالة.

فتحت عيني على صوتها، وبدت لي عيناها، أنها عرفت حالي ومآل ليلتي ومرآي.

احتضنتني بكل الشوق والحاجة والألم والوحدة، بل كأنها رمت كل شيء على صدري، قاسمتها ذاك كأنه الورد، كأنه الفرح كأنه للحب زاد.

هامستني بكل اصرار وقرار وقالت:

ـ يجب أن نهرب الليلة، ألفونسو قرر قتلك، لقد وصله نبأ يدينك ويورطك لا أعرف من أين! ولكن يجب علينا الآن أن نتحرك.

ـ نبأ ماذا يا روزا لينا؟!

ـ الدون أخبرني أنك كشفت سر ازدواجيته.

سيقتلك بسرك ذاك، يجب أن ترحل وسأذهب معك سأهرب.

فكرت في لحظة بكل شيء، وعرفت أن هناك من سرب للدون، فيده طائلة في كل مكان على الأرض، وأصبحت مكشوفا وسأصفى قريبا دون شك.

سألت الدونا روزا عن مكانه، فأخبرتني أنه في غرفته، بعد أن فرغ منها. فعزمتُ على قتله.

أخبرتها أن تذهب الآن وسألحقها، لكنها أبت وكانت غريبة لكن حبي الأعمى لها يفسر كل شيء فيها ويخلق أعذارا لا تنتهي.

لم أفهم كيف سيطرت بهذه الطريقة عليّ؟ لأن عقلي لم يستسغ ما

حولني الحب إليه، لم أستسغ أدريان الجديد الذي جاء بفكر وعمل ليصبح عاشقا وخاضعا كأنه السفيه بذاته.

ولكنها لم تكن غلطة حياتي.

رحلت مع روزا لينا، تقودني بيدها الناعمة، الى طريق خططت قبلا لبلوغه، ولكنه جاءني على طبق من ذهب، أصبحت بين يوم وليلة بين ثوار ومناصرين تشي جيفارا والأخوين كاسترو، وأصبحت محبوبتي بين يدي، ولكنها ليست كما أريد.

السر التاسع

لتغير ما تريد، يجب أن تكون ما لا تريد

سر روحي.

الحب. شيء وحاجة، طريقة وطريق، حياة وموت، شيء إن غاب عن أحدنا تجرد من إنسانيته.

كل حياتي السابقة، كل ما وجدته من والدين حطما صورتهما دون ذنب اقترفته، سوى أنني ثمرة نبتت في لحظة شهوة.

وكم كانت الحرب قاسية! رغم أن قسوة البشر هي من خلقتها، وسيطرت على وحشها وألمها وعذابها.

أدخلتني مع معاناة الفقد، لصنيعة أخرى للحرب البشرية، صنيعة جاسوس نذل، يخدم مصالحَ وعقولا تتصارع على إيديولوجية هدفها تقسيم البشر مرة أخرى.

ألمانيا قُسمت بجدار برلين. أصبح وطني كحالي منقسما، يتصارع ضداه للانتصار كل على طريقته، والنتيجة أنني لا أنتصر، بل أعيش مكرها على أنقاض روحي البالية.

لم أكن أبتغي طريق جاسوسية تجعلني على غير حقيقتي، تجعلني أكذب، أدنس، أقسّم، أو أقتل روحا ببساطة.

أدريان كان سيكون مفكرا، يمنح البشرية علما وأسلوبا وحياة وطريقة.

يا أسفي على ما ضاع مني، يا أسفي على بشر يتقاتلون على زائل لا يمنح غير العذاب للإنسانية.

كوكب في كون فسيح، يتقاتل فيه البشر على همجية لا طائل منها، لا هدف سوى الدمار نفسه. لا أذكر خيرا كان نتاجا للحرب، لا أذكر ما منحته لنا من حياة بل كل ما حولته فينا كان مرادفا للموت.

أحببت روزا لينا الى درجة الجنون، قدستها الى درجة الهوس، وحرمت نفسي المتعة منها، رغم أنها كانت تتوسلني لذلك، لأنني أردت حبا ليس ككل الرجال يبحثون عن امرأة فاتنة للفراش. لا. بل أردت حبا جارفا لأعيش به، يكون عظيما كما أتخيله وكما أريده وكما أستطيع أن أسطر فيه فلسفة قد تشفي نفسي بسعة الأنفاس الحرة لشهم حر.

حبيبتي روزا لينا، لن أبني معكِ قصة حب عرجاء، أريد حبا عظيما أو لا حب.

أريدك لي ولست لغيري، صافية كحجر كريم صقل بعناية إلهية.

أريد أدريان كما تعرفه نفسي ولا تهرب منه، سريع البديهة، رافع الرأس مفكرا لأجل البشرية جمعاء، لا كما تخطط له ايديولوجية فكر على حساب فكر آخر.

أريد أن أكون مفكرا لا جاسوسا، أريد أن أكون زوجا طاهرا لا عشيقا دنِسا.

فكان صواب قلبي، مرادفا لك يا عقلي.

تلك الفترة من حياتي، غيرتني حقا، لم يحدث التغيير لمجرد نزوة عابرة أو حب جارف، أو التخلي عن حياة صقلت لأجل أغراب، همهم الوحيد إثبات انتصار لن يزيد البشرية شيئا في نظري.

كانت روزا لينا معي، تتحصن كما أتحصن من خطيئة الهرب. من الخطيئة نفسها. بدأت تتعب من حياة صعبة بعيدة عن رفاهية الدون ألفونسو، وبدأت أيضا تستغرب من طريقة تفكيري، من الحب الذي لا أدعيه دون تفسير للصد الذي لاقته مني فأصبحت مجروحة ولكنها عاشقة حتى النخاع.

وتداخلت السياسة مع الحب مع الشجن في حياتي، وتفرعت السياسة لتصبح فكرا، والعشق تضخم ليتآكلني كرغبة يسيطر عليها عقلي الجبار حقا، أمام امرأة بديعة الجمال كثيرة الفتنة أعشقها قبل هذا كله.

حركات النخبة المفكرة في جبال سييرا مايسترا، بدأت تنظم صفوفها، وتخطط لاجتياح هافانا وتولي زمام السلطة.

وبدأ كم من المعلومات يتجمع بين يدي، وسيقدم على صحن من ذهب لي قبل المخابرات الأمريكية.

لكنني أبيت هذا، وقررت الانسلاخ من براثن جاسوسية لتعديل شخصية غُيّرت دون وجه حق.

أعترف أنني بدأت بنفسي، لإحداث تغيير على حياتي ومبادئي، دون الالتفات الى جانب عظيم فيها وهي محبوبتي روزا لينا، ولكنني آثرت بناء الأصل ليشع نورا وحقيقة، ليمتص بفخر كل جميل ومبهج ورائع يحيطني، وعلمت دون شك أنني سأقتل بفعلتي هذه، وسأجعل من غاليتي موءودة معي هي الأخرى، فهاجمني التفكير، التفكير العميق في إحداث ثورة دون ضحايا، رغم أن الثورة مهما كانت فلا بد لها من ضحايا أيضا.

فكرت في ترك سييرا مايسترا، ولكنني سأكون في خطر المخابرات الأمريكية والسوفياتية والدون معا.

وتبقى هذه اللحظات مؤمنة إلى حين فقط لا غير.

أعرف أني امتلك حدسا عظيما. وبه أدركت أن نهايتي قريبة هنا وقد تحدث في أي وقت. وهاجني فراق روزا لينا. وربما فكرت أيضا في أخذها دون ذنب بعلّتي التي تبت عنها بقرار أخير لا رجعة فيه.

كانت جبال سييرا مايسترا مزروعة بأنصار تشي جيفارا والأخوين كاسترو، وكان هربي، سيفتح أبواب شك لن أستطيع تبريره، لذا حاولت الانطواء

والكتابة. أما روزا لينا فتشبعت عيناها حزنا وكبرياء وغضبا وهياما، كأن المرأة التي هربت معي ازدادت حبا وكرها، ويا ليتها تعلم ما في بالي وما يخطر عليه.

كنت أراقب كل شيء حتى إن كانت نسمة رقيقة لورقة شجر واحدة، منتبها لما يحيطني بإمعان، مهووسا الى حد الهيستيريا لأنني أتوقع حدوث الأسوأ في هذا الوقت، فهنا الكل مستعد متأهب يخون الكل بعضه والبعض كله، لا شيء ثابت إلا أوامر الأخوين كاسترو وتشي.

كنت قد غبت قليلا عن الثوار، بعد أن جمعت بعض الأغصان الكبيرة لبناء سقف منزل صغير، يحميني أنا وروزا لينا من غزارة الأمطار والوحل الذي تخلفه.

كانت شديدة حقا وقد ابتللت كلياً، فاتخذت الطريق الطويلة التي نهينا عن المشي فيها لخطر وجود الحيوانات المفترسة وربما الأعداء الذين يترصدون الثوار. حملت ربطة الأغصان بعد لفها ككومة على ظهري.

وبدأت المشي مستعملا جميع حواسي وكان حدسي يسيرني قبل تلك الحواس جميعا.

كانت خطواتي الحذرة تجرني نحو حقيقة لا بأس بثقلها علي، لا بأس أيضا بألمها وحيرتها وغرابتها.

كانت خطواتي تتوسط الأرض والهواء، لهذا لا يُسمع لها صوت. إنها طريقة المشي التي لا تخلف أثرا خاصة أمام عيون العامة. كنت كذلك حتى سمعت بأذنيّ صوتا مألوفا وإن كان بعيدا علي. وضعت الكومة بحذر شديد وقد جعلت فوقها غطاءً يسترها من العشب والأوراق، وتسلقت الأشجار العملاقة التي تجانب بعضها، بحذر أيضا، حتى أتطلع لمصدر الصوت الذي شدني من بعيد.

وعندما اقتربت وجدت روزا لينا تتخبط بين ذراعي شخص ما، تتكلم معه كأنها تعرفه جيدا، أظنها تعاتبه.

حسنا. أنا الآن أنظر وأحس أن صدري مدفون في كومة جمر، دقاته تتسارع خوفا من ظن سيء بات يهاجمني بكل احتواءاته المصورة، بدأت أسمع صوته وهو يقترب منها بجرأة ما، لا أعرف ما سبب امتلاكه لسطوته هذه عليها، و بكل هذا الجبروت؟!

أمسك يديها مقتربا منها، فتنتزعها منه بقوة وتنهار باكية نحو قدميه، وكان هو جائرا عليها ينظر لها بشهوة وانتقام، ورغم أنه لم يزد عن تلك النظرات شيئا إلا أنه تركها وذهب.

كانت تبكي بمرارة وتنتحب بحزن، لم أفهم سر أمرها لكنني سارعت وحملت كومة الخشب ورجعت حيث كنت، انتظرت ما يربو الساعة حتى هدأت أمطار سييرا مايسترا، وكان النهار سيأفل قريبا، كما ستأفل مشاعر الطمأنينة التي كنت أمن بها على روزا لينا.

أعلم أنني لا أعرف ماضيها، لا أعرف أدنى شيء عنها، كانت روزا لينا بنظري صفحة بيضاء نقية يشتملها الطهر دوني، وكنت صبيا مراهقا طفلا بين قوة حبها وغرامها.

كانت من بين كل النساء تملكت أشيائي وسطت على روحي فسرقتها من كل عالمي.

ربما ليست مذنبة في شعوري هذا، فكلنا نمتلك أسرارا، ونمتلك أشياءنا ونخاف أن يعلم أحباءنا بها، لا طاقة لأفكار الشجن على صورتها البهية، بل حدث ما يشبه بعض الهم الذي نغص علي جزءا من قراري في عدم الخوض في حياتها، تلك الدموع الحزينة جدا من عينيها جعلتني أفكر في تغيير أسلوب حبي لامرأة حياتي.

رجعت إليها وجدتها تمشط شعرها الحالك السواد بعد أن استحمت، من أثر الوحل بين تلك المناوشة الغريبة.

وهي كذلك حتى سطوت عليها وكأنني أسرقها من العالم ومن نفسها، وأحملها بين ذراعي كما تحمل بين أحضانك هدية لأعز البشر.

أصدرت ضحكتها الماسية فاهتز بريقها لينير ظلمة قلبي.

ما أبهاك! يا روزا لينا وما أجملك! إنك قطعة من روحي بل كلها يا أعز البشر.

يا عالمي وحياتي وكلي بما احتويت.

ـ ما الأمر؟! تبدو مختلفا.

قالت هذا وهي تتلمس بأناملها القمرية بشرة وجهي، كانت عيناها السوداء الكبيرة كقطعة من الليل يزينها القمر ليلة اكتماله، بريقها، صوتها الذي يشبه الغفوة والشهد عندما يمتزجان بين الحلم واليقظة.

أجبتها:

ـ لست أبدو كذلك، بل إنني كذلك، إنني مشتاق لامرأة خلدت حياتي وذكراي بين النسيان، مشتاق لك حد البرد للدفء الذي تدثر داخلي أعواما طوال.

ـ هل أنا الدفء؟! حقا؟

ـ أنت الطهر بين خطاياي، أنت الروح التي نمت منذ أزلها بين هالتها، سكينة لا تبرح صخب حياتي التي مُلئت فوضى واحتقانا بوحدة عميقة.

ـ إذن تحبني؟ فما بالك تبعدني عنك وأنا دونك الحطام الذي لا فائدة منه؟!

ـ أريدك زوجة لا عشيقة يا روزا، أريدك عذراء التملك منتهية بين أحضاني بقوة القانون والعرف.

ـ وما الحل؟ إنني زوجة الدون قانونيا وإن رجعت لأطلب فراقه سينتقم مني ولن يتوانى بتقديمي لأعوان باتيستا وسيتم إعدامي.

ـ إذن سأجد الحل. لكنني سأخرج من هنا وسأعود.

ـ تخرج من هنا؟! وتعود! مالك يا أدريان هل تريد قتلي خوفا عليك وإدراكا أنك ميت لا محالة؟ لا تفسد ساعتي الآملة وتدمي ليلتي الحالمة، يا غصتي من حب تجلد كالصخر، وصعب عليّ احتوائه والبقاء معه، وكم أنت غريب يا مغرمي! وكم أنت غريب.

ألست من تذوب نظراتك في قامتي؟ ويتكلم تيهك فيّ كلما اقتربت منك، مالك تبتعد عني يا أدريان كزاهد لا رغبة له بالحب؟! ما بالك لا تهوى قربي وأنت تخاطبني بنظرات مليئة بشغف وغرام؟!

لقد أنصت إليها، وكل تلك الكلمات التي قالتها جرتني لأن أسألها أيضا، لأخبرها أن الكل يحمل سرا وطريقة للتفكير وللحب، وأن هناك أسرار كثيرة تكمن في العقل وتسكن القلب.

ولا أحد على الاطلاق بريء من كل هذا..

لكنني قبلتها قبلتي التي عرفت أنها الأولى، كأنني لم أقبل امرأة قبلها، كأنني لم ألمس وأتعمق في معنى نفس يخترق بشرة وجهك ليصيب قمة روحك.

أحسست بدوار الكون، أحسست بقوة تتخلل أوصالي وتمتد لكل شراييني، وتبدع في رسم صورة العشق عندما يلتقي الجسد بالحب، صورة يموت فيها الكون ويتقلص الوجود ويتخدر التفكير، وتهرب كل أسئلة العقل، لتصبح أنت والعالم والمحيط والسماء والأرض مجرد قبلة.

في تلك اللحظة تأكدت من قراري وعرفت أن لا شيء يستحق في حياتي، قدر جمال حب يتبادله محبوبك معك.

أي سعادة ستحقق لي العظمة بقدر هكذا حب وهكذا شغف؟

وعرفت أخيرا كيف سأرسم طريقي، وأجسد حياتي، لأترك روزا لينا في تلك الليلة وأمضي بعد قطع وعد بيننا أن لا شيء سيفرقنا مهما تجسدت الصعاب وتعقدت الطرق والسبل.

ورغم عنادها راغبة في بقائي ولكنني استطعت إقناعها بالذهاب لتسوية أمر زواجها والعودة.

كانت روزا تعلم سر ازدواجية الدون ولكنني اعترفت لها كيف أسر لي هذا في احدى ليالي مجونه، وأخبرتها أن هذا الأمر هو الكفيل الوحيد في ابتزازه لإطلاق سراحها والعودة بوثائق طلاقها وحريتها، كنت عازما ومصرا لاتخاذ هذه الخطوة، ومواجهة الأمر مهما تطلب مني هذا من نتائج.

وأخيرا. بعد صد ورد وقبول ونفور اقتنعت وأطلقت سراحي من بين ذراعيها بقوة الأمل الذي بشرتها به.

والذي تعلقت بزخارف الأحلام منه، فانطلقت بعد كومة من التحقيق بلغت ست ساعات تلك الليلة.

وكان هذا لا بد منه لتأمين حياة الجميع وقد استطعت إقناعهم بترك الدونا روزا بينهم حتى أرجع.

ودون ذكر الخطوات والاحتياطات الكثيرة جدا، والحريصة لأبعد الحدود، فقد انسللت كعادتي لأنزل لهافانا راجيا كل ما أملك من عقلي وقلبي سبل الانتصار على الدون ألفونسو، وانتزاع روزا لينا من بين يديه العفنة.

وصلت ليلا بعد مشقة كبيرة، فالجو السياسي في البلاد مضطرب ومحتقن، والكل يترقب الكل أو يهرب من الطرف الآخر بكل حذر وترقب.

أحسست أن هناك أعينا ورائي منذ خروجي من جبال سييرا مايسترا، لا أعرف إلا أن هناك خطبا ما، وإن فعلت ما يثير الشكوك فسينتهي أمري وأملي

وكل ما أصبو إليه في لمح البصر.

وتأكدت أخيرا من حدسي الصدوق، أمام شخص نزل من سيارته مقتربا مني مناديا علي باسمي.

لقد أمرني بالركوب دون مقاومة، ودون أسئلة وقد أراني سلاحه السوفياتي الصنع من تحت معطفه الطويل، وهذا بعد أن فتشني واقترب أن يفتش حتى عن مصدر أنفاسي وحساب عددها.

ثم ركبت السيارة، وقد عرفت أنني بين يدي مخابرات قد تكون من أي معترك أو بين عصابات لا أعرف مصيري بين أياديها.

لقد سقطت بين المطرقة والسندان. سقطت بين أشخاص لا يمثلون شيئا بالنسبة لي ولا يمثل أعداءهم شيئا لي أيضا.

إنني إنسان قد اقتنع بفكره وهويته، ولم يعد للشيوعية الاشتراكية ولا للرأسمالية تأثير وانحياز داخل شخصيتي وعقلي، ولكن للماضي لغة أخرى وطريقا رسم بأيدي خفية، وله كلمته الأخيرة وربما ستكون القاضية علي.

تصرفت كعادتي باتزان وسيطرت على تقاسيم وجهي، التي توحي بالبرود والطمأنينة، أتصنع ذلك باحترافية وصقيلة الجاسوس.

صمت ما يقرب الخمس دقائق نتبادل جميعا فيها النظرات من مرآة السيارة إلى عيون الجالس جانبي.

وبعد تحليل كل شيء وانتظار أي شيء، تكلمت معهم بجملة تبعد شبهة توتري قائلا:

ـ سيدي أنا لا أملك مالا حتى ان محفظتي خالية، إلا من ساعة ثمينة ولكنها غالية على قلبي، وإن كانت ستشتري لي حرية وراحة بالي فهي لكم وملككم.

لكن الجميع، وأقصد بذلك ثلاثتهم، لم ينبسوا ببنت شفة، ولم يأخذوا

من محفظتي شيئا.

وباشرت بالكلام مرة أخرى بعد صمت قليل مني، قائلا:

ـ ألديك سيجارة؟

وبالفعل أشعل لي الذي يجانبني سيجارة تنشقتها بشراهة، ليشعل لي الثانية فورا.

وقبل أن أكملها طلب مني الخروج من السيارة ليتم وضع كيس على رأسي وجرني الى مكان الله وحده أعلم إلى أين.

سرت ما يقرب العشرة دقائق لأركب في سيارة مرة أخرى، وأنا مقيد اليدين تلوح في عقلي بدايات كل شيء كان في حياتي، ونهايات كنت أرسم وأتخيل نتائجها.

كنت أستطيع الفرار من ثلاثتهم ولكنني أبيت لأنني شممت شيئا آخر يلمع بحقيقة أخرى الله أعلم بها.

أكملت خطواتي، فأنزل بعدها لأسير خمس دقائق ثم أصعد سلما حديديا يسمع له وقع الأقدام التي تسير معي، وتبدو لي أكثر من خمسة أشخاص، لأعرف أخيرا بعد جلوسي أنني على متن طائرة. وهنا خرجت من قائمتي العصابات وعرفت أنني بين يدي المخابرات السوفياتية لأن المخابرات الأمريكية لن تخرجني من كوبا على هذا النحو.

يطرأ الآن داخلي كل سؤال كانت قبله جملة من الأسئلة، عن تبرير خطف بطريقة غريبة ومثيرة للدهشة، والذي كان يدور في خلدي أنهم يبحثون عن مساءلتي ربما، لأنهم لو عزموا على تصفيتي لكنت أتنازع وأتقاتل مع محاولتهم، ولكنت قاتلا أو مقتولا.

والحقيقة أن الأمر شابه الكثير من الغموض بالنسبة لي، والذي أستغربه فعلا طيران طائرة تحمل أعداء باتيستا، في نطاق جوي موضوع تحت الرادار.

الأمر غريب جدا، إما أن يكونوا أنصارا للديكتاتور باتيستا، أو أن حكمه بدأ يضعف ويضيع بين قواته أنفسهم. أسئلة تحيرني ولا يفيدني منها غير جواب يشفي غليل السؤال.

أما أنا فقد كنت مقيد اليدين للخلف، مغطى الرأس لا أرى من الدنيا شيئا، لكنني استطعت تحديد عدد الأشخاص على الطائرة، وأنا كذلك على تلك الحال، حتى سمعت شخصا أخاله جالسا أمامي لأن جهة صوته كانت كذلك.

وبالتفصيل قال:

ـ أرني وجهه.

وعندها رأيت أخيرا ما كان أمامي. شخص مهندم بشكل أنيق، عينان روسيتان، بتلك الحدة والبرودة التي تعرف بين أحداق أعينهم. ووسامة غريبة طاغية عليه.

ومهلا. فقد كانت هناك على معصمه ساعة شوبارد. انها ساعة أنريكي نفسها التي اختفت ليلة مقتله، وهذا لا يبشرني بأي خير قد يلوح في الأفق.

تلمس لحيته، بعد تمعنه جيدا في تفاصيل وجهي، ثم أمرني بالوقوف فوقفت، وعندها نظر لي نظرة شك قائلا:

ـ مكون تكوينا عسكريا، أين كان هذا سيد أدريان؟!

وهنا عرفت أنني ارتكبت غلطة حقيقية بوقفتي العسكرية وكان لا بد لي من تداركها، فقلت:

ـ أجل. ومن هو الذي لم يكن كذلك يا سيدي وفي هكذا أوضاع؟ لقد كونت وتجندت في صفوف الجيش الألماني أثناء الحرب، وأنا ابن الثالثة عشر، وبقيت كذلك دون أن أشعر.

وعندها أشعل سجارته، وتمعن في كأنه يقرأني، وذكرني هذا بالكولونيل

جون جونيور سلفت، كأن التاريخ سيعيد نفسه؟!

ولكنني أخال أنه بوجه آخر لعملة قدرية واحدة.

أو ربما شيء آخر؟ كأن حدسي لا يعمل بين السماء والأرض. فرضية تجعلني أسخر من نفسي في قمة حاجتي لها.

أمر بفك قيدي، وأشعل لي سيجارة بتواضع غريب حقا، وقال:

ـ ما الذي كنت تفعله في كوبا؟

وبدأت أجيبه سؤالا بسؤال، وملامحه الباردة تغطي تقاسيمه، كأنه يشبهني في شيء ما، كأنه يحمل بعض أركاني وهذا أزعجني وأربكني كما أزعجه وأربكه.

حتى وصل الى سؤال، زعزع كل كياني، وجعلني أحس باقتراب نفسي من هوة الانتحار، لثقل الشك الذي يدور حول محور تفكيري.

كان سؤاله سريعا مهمشا كأنه يسرد قصة ما قبل النوم بخفة، أما بالنسبة لي فهذا كرر داخلي ما يسمى بإعصار الألم لطعم الخيبة لقد قال:

ـ هل أنت متأكد أن الدون ألفونسو عميل مزدوج؟

كان هذا الأمر الى حد الآن سؤالا عاديا، ولكن السؤال التالي، فجر محنتي، وجعل كل الأرض تملك مساحة الإنش المربع أمامي:

ـ إذن، استعمل أمواله لتمويل أي تيار يراه سينتصر؟

صمت قليلا، فبادل صمتي برفع عينيه نحوي بحذر بعد أن كان يركز على إشعال سيجارته الخامسة عشر.

وعندها في لحظة صغيرة تقدر بلمح البصر، أجبته:

ـ هذا ما أخبرني به يا سيدي؟ لا أعلم إن كان حقيقيا أو غير هذا.

ـ حسنا. وأنت ما رأيك فيه؟

ـ أراه نذلا وحقيرا.

كنت في نفس ذلك الوقت أراجع الإنسان الوحيد الذي أطلعته على هكذا أمر، وكانت الوحيدة التي ائتمنتها على هذا السر في كل هذا العالم هي روزا لينا!

إنها هي!

أحسست بتقلص معدتي، واستفرغت كل شيء، لأحس بدوار يجرفني الى عالم آخر، وأظنها السيجارة التي قدمها لي هذا الشخص.

السر العاشر

أوكرانيا سجن لوكيانيفكا العاصمة
كييف/ فبراير1958

صدري يحوي مشاعرَ مشوشة، وألماً يرتعد بين جوانبه العشق، والذي يجعلني أرثى لحالي حقا. أن العشق يخلف أعذارا لا يستسيغها عقلي، وبراثنه تحاول التشبث في أي مساحة على قلبي، لتدميه بقسوة السيطرة والتشبث.

كل الصقيع الذي في السجن، لا يشبه الصقيع الموجود داخلي، والذي يضرب جذوره متمسكا بأن يجعلني أعاني طيلة حياتي من غدر أعز البشر.

كنت وسط هذا الوجع، موجودا في حضن شيوعي تبنته أوكرانيا، واستولت عليه عقول سوفياتية مقاومة ومناضلة.

التهمة لا أعرفها الى حد الآن وأنا موجود في معتقل يدعى لوكيانيفكا في كييف، وهذا ما عرفته من مسجون كان يصرخ ليلا مناديا على اسم السجن، وأظنه أنه كان هناك لأمد طويل.

عزلت عن العالم والبشر والهواء والشمس، لمدة أربعة أشهر، دون استجواب أو كلمة واحدة، في غرفة ضيقة جدا وفي سجن انفرادي.

قضيت في كل يوم ساعات طويلة تأخذ مني جل النهار والليل الذي لا أعرف توقيته، وأنا أمارس القفز وكل ما يمت للحركة والتدريب بصلة.

لم تكن لدي فكرة أخرى وإلا سأصاب بالجنون والضمور وكان الموت حلٌ لا ثاني له.

بعد انقضاء الأربعة أشهر، أصبحت لا أشبه أدريان الوسيم في شيء. فالشعر الأشقر غطى على كل ملامحي من لحيتي إلى غاية رأسي، وقد عرفت ملامح وجهي المتغيرة، من هذا الصحن الحديدي، الذي احتوى كل يوم على حساء يشبه الماء أكثر من شكل أي طعام.

لكنني حافظت على لياقتي في ظروف تقود الى النحول والموت والانكسار.

هذا اليوم من صيف عام ألف وتسعمائة وثمانية وخمسون، سمعت وقعا للأقدام لم أسمعه منذ أربعة أشهر، وظننت أنني لن أسمعه أبدا.

فتح باب السجن عليّ، وهذا أيضا لم يحدث منذ شهور أربع، أحسست بتوتر وأخفيت هذا بكل تأكيد.

دخل مجموعة من الجنود عليّ، أمرني قائدهم بالوقوف بعد أن كنت جالسا، وفي لحظة تم إحاطتي بهم، والتوجه الى مكان الله وحده أعلم بحقيقته.

لم يطل الأمر أكثر من النصف ساعة للخروج من لوكيانيفكا، وأحسست وأنا أمد قدمي للمشي أنني في سرور، وإن كان الذهاب الى حتفي ربما.

ولكن النور الذي تنشره الشمس على الأرض كاد أن يصيبني بالعمى، فكم حجب عني هذا النور من زمن! عوضه مصباح يشتعل خمسة ثوان وينطفئ لآلاف الثواني الأخرى التي تغطي باقي اليوم.

شعور غريب آخر من المفروض أنني كُوّنت لأتجاوزه، ولكن الحب غيرني وجعلني أنسى عقلانية وتكوينا وذكاء، لطالما صنع أدريان ريتش هوفمن.

أخيرا، ركبت طائرة صغيرة نقلتني الى مكان آخر هو موسكو في الاتحاد السوفياتي.

هناك، ساورني شعور غريب، أحسست بأن أمرا ما ينتظرني، ولم أعرف لمَ

أصبح حدسي قويا فجأة.

كانت الطائرة تحتوي جنودا آخرين غير الذين أوصلوني إليها، أحاطوني مرة أخرى بعد أن قيدوا يدي وقدمي، لتطير بي الى عاصمة الاتحاد السوفياتي وتحط بي في مطار عسكري شديد الحراسة.

فتحت أبواب الطائرة لأصعد مرة أخرى على متن حافلة عسكرية قادتني الى مكان غريب حقا.

غابة كثيفة، أشجار رائعة منسقة بشكل فني، ومع التغلغل فيها دخلنا منزلا مدهشا في وسط الغابة، كان يشبه القصور حقا، بحدائقه الغناء يجعلني ممن ارتادوا الجحيم، ثم بعثوا في الفردوس، ولا أعرف مباليا! فأنا لا أستطيع وضع أفكار محددة؟ حول الذي يحدث حولي، لا أعرف؟! كلما توغلت إلى الداخل أحس كأنني أنازع الدهشة والخوف في آن واحد.

فقد توقعت معتقلا آخر، مكانا بشعا وقبيحا كلوكيانيفكا. وهكذا نزلت من الحافلة. دخلت من باب يبدو بابا خلفيا ومخصصا في آخر القصر هذا، وأنا محاط بالجنود. وبعد مسير في ردهات كثيرة التقى بنا شخص يبدو في السبعين من عمره، مبتسما.

حسنا. في أول الأمر بدا أنه يبتسم للجنود أمامه ولكنه كان مركزا بعينيه الصغيرتين وخلف نظارته جيدا عليّ، وهذا أذهلني وزاد من حيرتي بعد أن ناداني باسمي ودون خطأ، لينسحب معظم الجنود بحركة عسكرية، وبقي واحدا خلفي. كنت مأمورا أن أتبع المبتسم المتأنق لأدخل الى غرفة جميلة جدا، بل حماما خرافيا، وأجلس بين يدي حلاق روسي مبدع، أبدع قص شعري الذهبي وتعديل لحيتي، لأدخل وأغتسل في حمام كأنني ملك، بعد أربعة أشهر وأكثر من القرف.

كنت مبتسما أيضا، بل أصبحت مسكونا بما يسمى بابتسامة معدية

لذاك المتأنق.

بقيت الساعتين وأنا أستحم. لم أترك غسولا واحدا لم أستعمله. أظن أنها كانت بالعشرات، والجندي يناظرني بابتسامة تظهر بالمكبر ربما، لكنني أظن أنني أصبحت أرى كل شيء أمامي يبتسم حقا.

بعد هذا أحضر لي لباسا رائعا حقا، ذكرني بلباس آل ريتش هوفمن، أيام احتفالاتهم المتعالية والكبيرة.

وعندما نظرت الى المرآة، رأيت أدريان الألماني الذي يسرق قلوب الجميلات قد عادت صورته مجددا، ولكن هذا الوسيم قد كان يعاني من بعض الجوع بل الكثير منه، وعندها دخل نفس الشخص المبتسم والذي حافظ على تلك الابتسامة قائلا:

ـ سيدي. أنت في موسكو، في قصر الأميرال أليكسندر خوربا تشوف، ويسره دعوتك للعشاء.

صمت قليلا. وأخبرته بكل ثقة بلغته الروسية مجيبا:

ـ حسنا.

كانت كلمة واحدة لا أكثر، سحقا! فالأمر يظهر مريبا ولم تسر نفسي كثيرا به. وفي خضم قلقي، كان المبتسم يزيد من عرض ابتسامته، ويقدم يديه لأسير وهو يقودني نحو باب كبير جدا بمشيته المتزنة والواثقة، كان ذاك الباب رائع التصاميم والنقشات الذهبية على خشبه الأبيض، ليفتحه خادمان أنيقان، فتنتشر الموسيقى حول جميع أصقاع روحي، كقطرات مطر على أرض جرداء.

كان هناك الكثير من الناس، من النساء الفاتنات والرجال الذين تبدوا على ملامحهم علامات الرقي والعيش الرغد، وكنت سأصاب بالإغماء والدوار، من شدة الضجيج الذي عزلت عنه شهورا.

وأخيرا، يفتح الباب لأدخل غرفة أخرى، فأجد الشخص نفسه الذي قابلته في الطائرة التي نقلتني لأوكرانيا، إنه الأميرال «أليكسندر خوربا تشوف».

شخصية معقدة، تمتزج وتكتسح الكثير من الصفات المتناقضة بشدة وغرابة، إيديولوجية مفعمة ببعض الملامح التي تحيط وجهه الملائكي وابتسامته الرقيقة، والتي تقبع خلفها قرارات مصيرية في حياة الكثيرين.

لم أنس أبدا تلك الليلة، الى حد الآن ولغاية كتابتي لهاته السطور، وأنا أتوقع في سجني هذا أي لحظة لتنفيذ الحكم بالإعدام، لم أنس الأميرال لسبب سأخبركم عنه بين سطوري إن اكتملت قبل إعدامي.

السر الحادي عشر

سر نظرية القانون العظيم

موسكو قصر الأميرال أليكسندر خوربا تشوف
صيف عام 1958م

يروقني الآن كل شيء اضطهدني، وجعلني أتفوق على نفسي قبل أن أسقط في هاوية الغرام.

أيام السجن في لوكيانيفكا، كان عذابا زاده الشوق لروزا لينا، كانت مساحته الثلاثة أمتار المربعة، تصبح ثلاثة مليمترات مربعة تخنق قلبي وتسيطر على الروح العاشقة والملتهبة.

لأن البعد وقود للهيام، يرسم مثالية الحبيب بشكل أجمل وأرقى. ويجعلنا الشوق محاصرين بصور مثالية للأحبة.

كل دقيقة مرت علي، كنت أتخيل روزا لينا بأبعادها الملموسة والمحسوسة، فتندمج كائنا نورانيا بمثالية الخلق المدهشة والعظيمة.

عندما رأيت نفسي في المرآة، تمنيت لو رأيتها بدلا مني، لتغفو مدارك شوقي وجنوني.

همت بها. همت حتى اكتفى مني الهيام نفسه، واتقد ما فاض منه لعشاق الأرض جميعا.

تلك الليلة التي التقيت بها بالأميرال، تغيرت حياتي مرة أخرى ومالت الى كفة ثانية بإجبار نفسي وبنقطة ضعف مدمرة، صنعتها رغبتي في الحياة كبقية البشر.

جلست أمامه على كرسي مكتبه الفاخر، وبعد كلام طيب قاله لي، وقف لأقف بعده وأتبعه أينما يذهب، ليصل أمام باب آخر فتح بمجرد أوامره، لندخل غرفة فسيحة موضوع على طاولة ملكية فيها، أشهى ما يوجد على الأرض من طعام.

جلست رأس الطاولة مقابلا إياه على رأسها الآخر، ليأتي بعدها الرجل السبعيني المبتسم، وكلمه بصوت خافت لكنني سمعته وهو يقول له، دعها تدخل.

وبعد لحظات دخل آخر انسان كنت أتوقع رؤيته، لقد دخلت للدونا روزا كأنها ملاك شاحب، يمتص كل شعور أملكه، كانت تائهة جدا، ليست كالتي أعرفها، وأعرف حالتها الحزينة قبل السعيدة.

بل عاملتني كأنها لا تعرفني، حتى أصابني الشك في قواي، وفي حقيقة ما أراه بين عيني.

ما الأمر؟! ما الذي يحدث الآن؟ أحس بأنني في دائرة ضائعة من الأسرار، تظهر وراء بعضها كلعنة وراء الأخرى.

تكتمل الغرابة بوقوفه أمام روزا لينا بأدب، لأقف معه، حتى جلست على الكرسي، لنجلس أيضا، ليقول الأميرال بلهجة واثقة:

ـ أعرفك عزيزتي بأدريان ضيفنا الشرفي هاته الليلة السعيدة.

توقف العالم مع أنفاسي وقلبي عند كلمة عزيزتي، وتبخر عقلي ليصبح حجما صغيرا من الأشلاء، ستصيبني بالجنون، ليكمل كلامه الثاني الذي سوف يصيبني بضربة في مستوى مكونات الإنسان الثلاثة، الروح والعقل والقلب. قائلا:

ـ أقدم لك زوجتي أناستا زيا خوربا تشوف، التي كانت تدعى الدونا روزا لينا.

ألم تكن تعرفها بهذا الاسم يا أدريان؟

هناك، أحسست بمرارة وقلة حيلة، أمام كم الغرائب التي لا أفهم كيف أفسرها، تذكرت في لحظات قليلة تقدر بلمح البصر، تلك الأحداث الغامضة التي أحاطت حبيبتي قبلا.

معركة المطر بين الغريب وبينها في غابات سييرا مايسترا، تصرف الدون معها بطريقة غريبة، أسرار تُكشف أمامي وكانت هي الوحيدة التي تعرفها موت ابنها أنريكي.

أمورٌ بدأت تظهر على أسئلة كان الأجدر بي طرحها قبل فوات الأوان ربما.

وأصبح العالم في نظري تالفا وتافها ويملك أوجها مرعبة ومخيفة وغير واضحة.

لأجيبه:

ـ من عرفتها كانت متزوجة الدون ألفونسو خوان خوسيه

سيدي، واسمها روزا لينا لم أكن أعرف غير هذا.

أما هي فقد كانت صامتة بشكل مخيف، بشكل خجل ومرتعب، وكنت أنا مجروحا، غاضبا، أتخيل نفسي وأنا أشفي غليلي بأسئلة لا تنتهي منها.

ليبتسم الأميرال ابتسامة استخفاف قائلا:

ـ الدون! كانت. الآن هي زوجتي أنا.

بنبرة تحدي سمعتها منه. هنا فهمت أمرا أكيدا أنه يعلم علاقتي الغرامية بها، يعلم أننا نتبادل الهيام، ونبرة تحديه غريبة، لأنها تفتح باب الأسئلة التي لا تنتهي، سأجن سأصاب بالجنون حقا، الغيرة تقتلني وتهشم كل عالمي بين أصابع كسيرة، فاقدة الوعي بخمرة النفاق والكذب والأسرار. أقسم أنني سأجن.

ـ صمتك في موقعه سيد أدريان، لكنني سأحتاج أن تتكلم وكثيرا أيضا.

الأميرال غامض جدا أشك أنه يشك بأمري ولكنه بمستواه العسكري والاجتماعي، وطريقته الغريبة في محادثته معي، يطرح أسئلة كثيرة أخرى وأجوبتها ستكون قاتلة في جميع ظروفها بالنسبة لي.

كنت أرى اهتمامه اللئيم، يثير حفيظتي واستغرابي، وأصبح فضولا لا ينفك يحاور عقلي بكل ما احتواه من منطق وعقل.

فلو أنه شك بي لمَ يدخلني قصره؟! ويجالسني ويتحداني ويراوغ كل منطق يستوجبه الظرف، الأمر مربك ومخيف ومحير حقا!

في ذاك الوقت ومع شهيتي التي كانت ممدودة على كامل الطاولة، أصبحت منعدمة، أمام هيجان مشاعري واختلاط أمور كثيرة علي.

أجبته على كلامه الأخير معي بتأكيد الأمر، وأنني سأتكلم معه في أي أمر شاء هو، بل أصبحت أرغب في هذا بقوة شديدة ومرعبة حتى لنفسي، فالمشاعر المختلطة ربما كانت خطوة يريد أن يستفزني بها، لأفقد جادة صوابي خاصة أنه كان يتحـداني ويراهنني بتلك النبرة الصوتية التي أحـاطني بها.

مسح فمه بالمنديل، ووقف لنقف جميعا، ثم أمرني بلحاقه، وأمر روزا لينا بالذهاب، وبالفعل تبعته ملتفتا لها بعد خطوتين وأنا وراءه، لأجدها مرتبكة وتحمل نظرات مخيفة وخائفة.

افترقنا في تلك اللحظة، وخلدي يتبع خطواتها خائف عليها، متأملا أنها ستكون بخير فقلب المتيم لا يملك نفسه.

بعد هذا الحوار بين كل الموجودات، من عقل ونفس وقلب وعدو أو صديق أو عابر سبيل، كنت لا أعرف شيئا، إلا أنني سأكون قريبا بين جواب أو أجوبة تنير ليلكية الأحداث وتفاسيرها الغريبة.

كانت بعض الخطوات حقا، بين غرفة الطعام الفاخرة، الى غاية مكتبته الرائعة والضخمة. مئات الكتب، معظمها نادر بسبب الجلد الذي يغلفها.

والخشب الأحمر الفاخر لخشب «السي كويا» التي ربما عمرها يتجاوز الثلاثة آلاف عام، والذي صنعت منه المكتبة المدهشة التي لم أر لها مثيلا في حياتي أبدا، تنم عن شخصية الأميرال الروسي المدهشة، فسطح مكتبه الفاخر، كان عليه كتاب يبدو عليه أن عمره مئات السنين كما اظن، وبعض القارورات الصغيرة، بعض الفرش الدقيقة.

جلس أمام مكتبه، ثم لبس نظارته، وأمرني بالجلوس أمامه، جلست. تمعنت فيما يفعله، لأراه يرمم كتابا عتيقا آخر، بخط اليد وباللغة اللاتينية، زادني دهشة. الممتع أن كل المكتبة ليست عادية، بل انها مدهشة بحق، صممت بأندر الأشياء، والحقيقة أن محتوياتها ليس لها مثيل على الأرض.

لاحظ الأميرال اندهاشي، وقال:

ـ إنه كتاب مدهش، يحتوي هوامش وملاحظات العالم نيكولاس كوبرنيكوس حول مركزية الشمس.

ـ رائع جدا. لم أر لهذا مثيلا أبدا.

فتح الكتاب القديم، بعد أن لبس قفازتين طبيتين، وقال:

ـ هل تعلم أنه لا يدخل مكتبتي أي أحد؟ أغلب الذين دخلوها دون اذني قتلتهم من فورهم، أما الذين دخلوها معي فليس أكثر من شخصين.

قالها بفخر وتعال.

ـ انه شرف لي سيدي الأميرال، والحقيقة أنني خلقت بين الكتب، وتربيت وكبرت على كلماتها وسطورها وفكرها.

استغرب قليلا:

ـ فكر! هل أنت مفكر؟

ـ لا أسمي نفسي هكذا، ولكن لي فكري الخاص وأرائي الخاصة أيضا.

ـ إذن عرف انتمائك الفكري لي، فحسب ما أعرفه عنك أنك

تملك فكرا شيوعيا.

ـ لست كذلك سيدي.

نزع نظارته، ووضع فرشاته التي كان ينفض بها أوراق كتابه العتيق، وقال:

ـ إذن.. رأسمالي؟

ـ ولا هذا أيضا سيدي.

ضحك وقال:

ـ ما أنت إذا؟!

ـ لأخبرك لا بد من وقت كبير ربما لا تملكه، وقد لا تستطيعه أمام ما تملك من مسؤوليات وأعمال سيدي الأميرال.

لكنه أبى، فجلسنا نتكلم كثيرا، ونتناقش أكثر إلى غاية وصولنا لسؤال مهم، ولقضية الإلحاد بالذات، والدين والوجود الإلهي، لأقول:

ـ بمناسبة الكلام عن الدين، هل أنت مؤمن يا سيدي؟

نظر لي باندهاش وبعض بدايات للغضب وقال:

ـ لا أؤمن بأي عقيدة ولا دين فأنا لم أؤمن بوجود إله في الوجود أبدا.

ـ وهل لديك دليل على هذا سيدي الأميرال؟

ـ قبل أن أجيبك أريد أن أعرف بدوري الجواب بالنسبة إليك على نفس السؤال:

ـ أجل. أنا مؤمن.

ـ حقا! وأي ديانة تعتنق يا ترى؟

ـ في الحقيقة معتقدي خليط مشترك مع جميع الديانات السماوية. وأنا

متيقن بوجود إله يقطن السماء.

شده جوابي فقال:

ـ كيف هذا؟! وضح لي وجهة نظرك بالضبط.

وجلسنا بالفعل لأقول:

ـ أعتقد بوجود الله جازما يا سيدي، بوجود قوة تحرك الوجود والكون بانضباط وعدالة وعظمة لا مثيل لها.

ـ أوه.. حقا! ألديك دليل على ما تقول؟

ـ أجل. لدي، ولكن ما دليلك على عدم وجود إله يا سيدي الأميرال؟

ـ قبل أن أقدم دليلي لك أود أن نضع نهاية اخرى لحديثنا تليق بمقام النهاية.

صمت قليلا، وأجبته:

ـ حسنا ولكن بما أن النهاية هي نهايتي أنا، فآخر ما أتمناه أن تكون من مخيلتي ورغبتي.

ابتسم ابتسامة ساخرة تخلف ثقلا على مستوى التحدي ليقول:

ـ إذن. ما هو رجاءك الأخير؟

ـ أن تحكم على حياتي بعين العطف، بكل كرمك وما اشتمل عليه.

ـ حسنا. وليكن ما تريده. ولكنني سأشترط بدوري شرطا يبجل العدالة التي تتكلم عنها، فإن لم تنجح في هذا، ستوفي دينك لي. وشرطي عظيم على نفسك وربما لن تقبل به، ولك حرية الفرار منه إن أردت هذا.

ـ حسنا. ما هو؟

ـ سأكون من يطلق الرصاصة الأخيرة على رأسك، وأمام أنا ستازيا. فهل ستكمل تحديك لي؟

أحسست بقشعريرة تسري في جسدي، وعلى كل فأنا ميت على يديه في كل الأحوال وليس لي سبيل غير هذه الطريق التي لا رجوع فيها أبدا.

قبلت تحديه مرغما لا بطلا، فقال بعد أن وقف ومشى بعض الخطوات:

ـ كنت طفلا عندما بدأت أفكر في كيفية وجود الكون والأرض والبشر، علماني والدايّ أن هناك إله يخلق كل شيء، كنت طفلا فضوليا وآمنت بالإله، إله يصفه والدي، أنه عادل وخير وعظيم. لكن من أوجد العدالة أوجد نقيضها فكيف يكون عادلا؟!

الإله يجب أن يتخذ صورة واحدة لا صورتين، فالجوع والقتل والألم أليس من صنع الإله الذي يتكلمون عنه؟ إذا فأنا لا أؤمن بهكذا إله يخلق المعاناة والتخلف والظلم.

الألم الذي تحس به البشرية صنيعة قدرية، فمن هو هذا الإله الذي يخلق لنا آلاما، يجعلنا نعيشها لأجل ماذا؟ ربما لأجل الاستمتاع، ثم يساومني على جنته ويخيفني بجحيمه، وسيبدو الأمر سخيفا وغير منطقي.

أليس هذا دليلا على عدم وجود إله؟! فالإله العظيم لا يساومنا على جنته، ولا يخيف مخلوقات مثلنا بناره أبدا.

فالعظمة ليست بالمساومة، ولو كنت إلها لاخترت خلق الجنة دون نار والعدالة دون الظلم.

فالذي يليق بالإله هو كرم خليقته لنا ليسعدنا لا ليؤلمنا أبدا.

وما المقابل الذي سوف يستفيده العظيم؟! بمقابل لا يحتاجه أصلا وهو في غنى عنه.

أما الخلق فلا بد أنه أوجد نفسه، وحقق ذاته بذاته في ظروف معينة بعد أن حقق الكون ذلك.

جد لي يا سيد أدريان، دليلا على إله عادل وعظيم؛ على إله لا يساومني

على جنته ولا يخيفني بناره، ويجعلني لا أعيش ألآمي ولا أؤلم غيري؛ إله يوقفني عند حدي فلا أستطيع أن أقرر مصائر ضحاياي كما أخطط لها وأريدها، فإن فعلت فلك كل ما تريده وتشتهيه.

وقفت أيضا، وأشرت الى كتابه النادر، الذي كان يرممه للعالم العظيم نيكولاس كوبرنيكوس قائلا:

ـ سيدي الأميرال هذا الكتاب نتاج عقل عظيم، يوم كانت الكنائس والمعابد تهيمن بقراراتها على الفكر الإنساني. الكتاب يحتوي مفهوما يقوم على إلغاء جملة واحدة وهي مركزية الأرض ولكنه يحتوي قرارا قبل أن يكون له معنى عظيما.

القرار مفهوم يستطيع أن يغير العالم والكون والوجود.

كيف يُصنع القرار؟ كيف يصنع قرار الخلق من الموجود الكوني إلى وجودنا نحن.

قاطعني قائلا:

ـ إذا أنت تعتمد على وجود إله نسبة لمنطق صياغة القرار؟

ـ لدي المزيد، ولكنني أود أن أنطلق من منطلق منطقنا كعقول، وخلق بشري قائم بذاته، فبقدر ما أننا نستطيع أن نلغي إله ببساطة نستطيع أيضا أن نفكر في وجوده إن كان موجودا، دون ضغط لأي عقيدة ودين، ودون ضغط أيضا لأي مشاعر وعاطفة، أريدك أن تفكر ببساطة دون أن تكون مؤمنا ودون أن تلغي وجود إله.

ـ سأفعل. أكمل.

ـ ما هو القرار سيدي؟ هذا السؤال أريدك أن تسأله وتدقق فيه، لأن من المستحيل أن يقرر العدم شيئا، أن تقرر الظروف خلق حشرة ما، ثم تقرر خلق انسان عظيم بفكره بقدرته التي تتماشى مع تطور علمه، لا يمكن

لذات العدم أن تصنع الظروف أيضا لتخلق شيئا ما، لأن الخلق عملية معقدة تخضع لقوانين وأنظمة دقيقة جدا ومتتالية ومثالية أيضا لدرجة مبهرة.

ـ إذا أنت تلغي نظرية التطور؟

ـ لا أؤمن بها، بل أؤمن بنظرية التكيف، التي جعلت من الكائنات تتعايش مع تغير ظروفها وتتكيف معها.

ـ إذا هي ذاتٌ قررت التكيف حسب كلامك، ولم يتدخل القرار الإلهي فيها.

ـ هذا نظام كوني يا سيدي، التكيف نظام يسير عليه الخلق، وليس قرارا كاملا بذاته كإنشاء موجود بكل ضوابطه وهيكلته.

صمت لأكمل قائلا:

ـ التشريع، أليس قرارا أيضا، فهو إصدار قوانين ضابطة للسلوك المجتمعي كهيكل يكوّن حضارة؟

أليس القانون كقانون يجب علينا فيه الدراسة والتمحيص، لفهم نتائجه عواقبه حسناته مساوئه؟

فكيف وجدت أدق القوانين في الكون إذا؟!

هذا الكتاب الذي يخضع لترميمك منذ زمن، كيف عرف العالم والكاهن نيكولاس كوبرنيكوس مركزية الشمس؟ لأنه فكر أن مركزية الأرض سينتج عنها خلل تام وكامل لن يستطيع كوكبنا أن يوفر الحياة عليه.

نظرية القانون العظيم، هي من تبرهن بوجود إله عظيم، قانون الكون دوران الأرض والكواكب، مركزية الشمس، تخضع ملايين الأشكال منها لقانون ثابت ومنظم ونظام يسير عليه، لن يكون نتاج العدم لأن القانون لا بد له من مشرع ومصدر وذات عاقلة وعظيمة وحكيمة أيضا.

بدأ الأميرال يتعرق، واهتز ثغره بغضب شديد، وقال:

ـ سأؤمن بوجود إله، ولكنه سيكون ربا خيّرا وشرّيرا، ظالما وعادلا، لن يكون بالنسبة إلي ربا خيّرا فقط لأن الخير لن يجتمع معه الشر، وسيكون ظالما لأن العدل لن يجتمع معه الظلم. فهل لديك إجابة لهذا؟ إجابة تبرهن لي فيها أن الرب عادل وخير؟

ـ العدل؟ كيف تعرف العدالة؟ وكيف تعرف الخير؟ أليس لأنك اختبرت الشر واختبرت الظلم.

نحن نؤمن بمنطق العدالة لأنها صفة إلهية، إذا. إذا غاب منطق العدالة وهي المنطق الأصلي الإلهي، فسيقبع مكانها الظلم.

وإذا غاب منطق الخير، وهي صفة إلهية أصلية سيكون مكانها منطق الشر. الكون والمنطق لا يقبل الفراغ أبدا.

الخير والعدالة منطق مطلق، والظلم والشر منطق ناتج عن غياب المنطق الأول.

عندما تحس بالألم ليس لأن ذاتك مريضة، بل لأن الخلل في جسدك، وهذا نتاج وليس أصلا.

العدالة والخير عندما يغيبان سيكون مكانهما الشر والظلم.

صمت الأميرال وطلب مني الخروج، لتتآكلني الأسئلة. وأنا خارج مكتبته، كنت رفقة غابريال، لأدخل غرفتي وأقضي ليلتي تلك محاولا إجاد طريقٍ للقاء بروزا لينا.

وأنا كذلك، حتى فتحت الباب ودخلت علي تحتضنني بلهفة، ولكنني أحتضنها بكل غضب.

نظرت لي تحمل عيناها كل الألم، كل الخجل، كل الحب والغرابة، تتوسلني كي أغفر لها كل تلك الظنون المتاخمة لحبي، والتي قد خلفت صدعا لا يبرأ بكلمات منها، قالت تحاول أن تكف كل هذه الحواجز التي

صنعتها بيننا:

ـ لا تظلمني يا أدريان.. لا تجعلني الجلادة التي لم ترحم أغلى البشر لديها.

استرسلت غاضبا ناهيا معاتبا:

ـ حقا! فسري لي أيتها الدونا إذن، اشرحي لي ما يسري عني ويخفف من ثقل وغور هذه الجراح، فأنا لا أفهم كيف أصبحت في ليلة وضحاها متزوجة لآخر، ومنتقلة من كوبا الى موسكو! من أنت؟ روزا لينا خوان خوسيه؟ أم أنا ستازيا خور بتشوف؟.

امتلأت عيناها دمعا، وتصبب الخوف من سوء ظني فقالت:

ـ لك الحق في كل ما تقوله يا أدريان. سأخبرك بكل تأكيد عن هويتي ولكن قبلها، يجب عليك أن تسمعني جيدا، وتفهم كل كلمة سأقولها لك، واعلم أننا أحيانا كثيرة نصبح رهائن ما نؤمن به فيتغلب ذلك على كل رغبة لنا في الحياة تنهدت لهذه الكلمات، لأنها تحمل غطاء سر قاتل، تفشيه الحبيبة لي ولربما تكتم حقائق أخرى لا غنى عن طيها بين كتمانها المظلم والظالم..

أراها قاسية على نفسي المغرمة، أراها تمتهن أقدم مهن الهوى، لتصبح امرأة تبيع جسدها حفاظا على مهنة تحسبها كل ما تملكه من مبادئ وطنية.

قبلا كنت أيضا ذاك الوسيم الذي يطيح بالكثيرات، تذكرت أيضا أن مبدأ الجاسوس الأول هو بيع نفسه، لأجل تحقيق غاية ومنفعة لا نعرف عمومها أو خصوصيتها ولربما ستنفع بها العقل البرغماتي وحده والجاسوسي أيضا وتفسر الكثير عن منهجه.

كنت مثلها أفعل ما تفعل، والفرق الوحيد الذي كان بيننا أنني توقفت وامتنعت لأجلها، ولكنها استمرت ولم تتوقف لأجلي اقتربت مني، توغلت

داخل الغرفة فتشتها باضطراب، ثم جلست وربتت على السرير كأنها تستدعيني لطقوسها الفاتنة والقاتلة.

يذاب الجليد هنا، يصبح دافئا وتنهال عليه خفقات القلب العاشق لتحركه فيتسارع ذوبانه، فاستضعفت قدمي هذا الجسد وحمله الهزيل وجلست جانبها، أريد أن تبوح لي، هذه الحبيبة عن أعذار أكابد بها فشل معتقداتي الانسانية أمام معتقداتها البرغماتية والمرعبة بالنسبة لي نتائجها

تمعنت وجهها، كان يحمل ملامح امرأة أخرى، غير التي كنت أعرفها، باتت قوية وجلدة، وتحمل عينين مليئتين بالأسرار، روزالينا التي أعرفها وأحببتها مختلفة، عن هذه الغريبة.

أم أنه الحب ومعتقده الذي يرينا بعين المغرم سرابا؟ تنكشف لنا حقيقته بعد تخم الهزائم والخيانة، يا وجعي ما أمر هذا الألم!.

صمتت قليلا، كأنها تعاني، كأنها تعلم أن أسرارها المنبلجة كصبح غائم ستسفر عن هول وتغيير كبير.

ثم تكلمت بنبرة تحمل خوفا وقوة، فنقيضها سر جمالها وسحرها:

ـ كنت طفلة يا أدريان، طفلة وحيدة لوالدين ظننت أن الكون هما، وأن البشر ما هم إلا هما أيضا، داخل منزلي كنت أعيش الجنة بأركانها من سماء وأرض، والدي كان شخصية مجنونة بحب أشيائها الخاصة، أمي انسانة ثورية تبنت الشيوعية وأرست مبادئ مشاعرها حتى داخل منزلها، فكانت نبع الحنان، وأبي صديق لن أجد مثيلا له في هذه الحياة. بزر مسدس في رأس والدي يا أدريان وسم في غداء أمي، تبخر كل شيء وتغيرت حياتي، لأنجو بأعجوبة بعد أن نقلني الأميرال لروسيا.

والدي اغتيلا دون رحمة، تلك اللحظة أسرفت كثيرا في تشكيل قلبي وعقلي، الثأر سيسري عن هول المصاب، عن هول تضحية لنشر الفكر

الشيوعي على أراضي اسبانيا الجميلة لنقتنص زهو الانتصار وتثبيت سلطة فكرية وشيوعية على ذاك الوطن.

بالنسبة لوطني الشيوعي، وقادتي هنا في هذا الاتحاد والامبراطورية المترامية الأطراف، كانا والدي بطلين، ولكن بالنسبة لي كانا ضحيتين، لن تناما روحيهما بسلام ودمهما معلق ينتظر الثأر.

أقسمت بدمي، على انتقام يجعلني أهنأ ولكنني كلما اقتربت من هدفي، تبخر الحلم وانسل كأنه لم يكن، كأنني أمسك السراب أو الماء.

نظرت لها نظرة لبيب فعرفت سر نظرتي وقالت:

ـ أجل. أجل كان الأميرال يستغبيني، يلعب بي كدمية سرقها على سبيل التلذذ بإثمه، ولكن عرفت ذلك بعد أن مات أنريكي، هل تذكر يا أدريان؟ تلك الليلة وبينما الجميع يستدير حولي، وبينما أنت تبحث بعينيك، كنت أنا أراه بين الجموع يبحث عن زهو تعذيبي والاستمتاع به. يلبس ساعة أنريكي شوبارد على معصمه دون أن يخفي ذلك أبدا.

سألتها باحثا عن جواب يقنع عقلي بجوابها المبتور

ـ إذن تلك المعركة بينك وبين الأميرال، في جبال سييرا مايسترا، كانت ضمن هذه الأسباب؟

نظرت مندهشة لي، فقد علمت أنني رأيتها في تلك الليلة الماطرة، أين كانت تتخبط بين ذراعي الأميرال تنهبها الحيل الضعاف، صمتت هنيهة وقالت:

ـ الموت ليس دائما سيئا، لأنه أحيانا يكشف لنا ما وراء اللغز والسر، المواقف الصعبة هي من تعلمنا كيف نفهم المحيطين بنا ونقدر عقولهم وأفكارهم، لم أتوقع أن الانسان الذي حماني بكل وسيلة، وتبنى زرع كل أحلام الوطن داخلي، سيكون نفسه من يحاول بكل قوته أيضا أن يغتال كل

أحلامي داخلي، قد أكون جاسوسة تحاول تكريس مبدأ قوميتها ووطنها، قد أكون من العقول نفسها التي تكونك أيضا.

ولكن كعقل الأميرال لا يوجد، لا يوجد انسان قد تعرفت به قد يشبهه، تجده ملاكا وشيطانا في نفس الوقت ولحظته، يجيد لعبة الحياة والموت كانه الشرير، كأنه يتمتع بتشكيل مشاعر الخوف لضحاياه، وقد كنت منهم، انه قاتل لا يرحم يمسك بنفوذ قلما يبلغها أحد. يجعلك تبلغ عنان السماء، وعندما تبدأ التحليق والأمل، ينصب شركه ويصيبك في مقتل، ويتلذذ بعدها برؤية السقوط من القمة للنهاية التي لا قعر لها.

قاطعتها لأن لهجتها بدت لي ستسفر عن رغبة مجنونة، ولا بد أن تكون رغبة انتقام.

ـ روزالينا، ما الذي تفكرين فيه؟

ابتسمت ابتسامة ماكرة واستدارت أكثر لجانبي وقالت:

ـ هل تذكر أنريكي؟ كانت الحياة تنتظره، كنت مغرمة بطفلي الذي كان يستطيع أن يكمل حياته وبعيدا عن عالمي يا أدريان، أحطته بحياتي التي لم أعشها، وفي لحظة قتله الأميرال، بسكين في قلبه، لأنه كان يعلم يقينا أن السكين كان في قلبي قبل قلب طفلي أنريكي.

سأنتقم لابني وأثأر له، ولكنني أريد أن أطلب منك شيئا يا حبيبي .

ـ ما الأمر؟

أمسكت يدي وضعتها على جهة قلبها وقالت:

لا تثق بي أبدا، مهما فعلت.. لا تثق ان اردت النجاة بحياتك.

السر الثاني عشر

سر الأميرال ألكسندر خوربا تشوف

النفس البشرية تكتنز الكثير من الاسرار، لا تبيحها أحيانا أي شريعة من الشرائع ولا أي حكم من الأحكام الانسانية.

تركيبة هذه الشخصية الغريبة للأميرال، لا تؤكد لي غير شيء واحد أنه تركيبة مزاجية صعبة الفهم والادراك، شخصية شريرة وتملكية وعنيفة وعتيدة الذكاء.

لا يخفى عنه شيء يتعلق بأي أحد عرفه، موسوعة خارقة وقفت أمامها لأول مرة محتارا وعاجزا، بل كنت أبدو صبيا لاهيا في لجج ظلامه المرعب.

الأميرال الروسي، شخصية مركبة وخطيرة وشريرة وقوية، لا أحد.. لا أحد على الاطلاق يقع ضمن نطاق انسانيته المنعدمة، كأنه صخرة كبيرة اتخذت وتقمصت شكل الانسان.

دخل غرفتي بعد خروج روزالينا، بمدة غير بعيدة استنشق بعد خطواته الاولى داخل غرفتي الهواء وقال:

ـ عطرها... عطرها يا أدريان يملأ المكان.. منذ أهديتها ليلة عرسنا عطر دي بريما فارا، وهي تضعه. قارورة واحدة في العالم تصنع لها خصيصا. فمهما كانت المرأة ذكية يا عزيزي، مهما كانت كذلك، فسوف تضعف أمام الحب والمال، ستكون العطور والجواهر، وسيلة للدخول الى قلبها بكل سهولة. كنت ولا زلت.. أستطيع معرفة مكانها، من خلال عطرها، أريجها الباذخ الذي لا يخطئ أبدا مكانها. وأراها قد زارتك، جاءتك لتعطيك فرصة للهرب، ولا تعلم أنها بإرادتي تفعل هذا.

غضبت كثيرا، واستفزني بكلماته وغروره، ولكنه استمر قائلا:

ـ لا تثق في اي امرأة أبدا يا أدريان.

أجبته ممتعضا:

ـ الثقة. الثقة يا سيدي شيء يكتسب، شيء تثبته المواقف العسيرة التي لا نجد فيها إلا من هم أهل لها، فهل ستكون أول من يخونها وأول من ينقض وعده وعهده وينكص على عقبيه؟!

تكلم بعد أن أحسست أن الغضب تقلب داخله بسكون وقال بنبرة خافتة:

ـ لا.. لن أخون ثقتك، ولن أنقض عهدي معك، ولكنني قبل الكلام عن أي شيء آخر، أريد منك أن تجاريني وتجاري كلامي، لأثبت لك أنك تحمل فكرا لا يستحق الاندثار أمام امرأة لا تستحقك أبدا.

ـ ما الذي تقصده يا سيدي؟!

ـ أنا ستازيا، امرأة بليت بحب الشيوعية وفكره، وزاده رغبتها، في تحقيق ما سعى والداها له، كانت ولا زالت تستعمل سحر فتنتها لحصد الرؤوس، وقتل القلوب، وأكثر الأدلة التي ستعرف فيها مدى ما تستطيع الوصول له، فهو دليل أمامك وصوب مرآك، فأنا قاتل ابنها أنريكي، وهي تعلم هذا وتدركه، ولكنها مستمرة معي، قانعة بي فهل تعلم لم؟ ... لأنها تعي جيدا مدى خدماتي التي أقدمها لوطنها وللفكر الشيوعي، فأبدلت مشاعرها بكبح أقوى

غريزة لها كامرأة وهي غريزة الأمومة، لقد انتصرت على ذاتها، فتفوقت عليك واستغلتك واخترقتك، بعدما كشفت نفسك يا أدريان، ليلة أنقذت أنا ستازيا، من تلك اليد التي حاولت الاعتداء عليها، طريقتك السريعة في قتله كشفت حقيقة قدرتك التي لا تملكها غير فئة تعرفها هي جيدا باحترافية، فاستطاعت السيطرة عليك واغوائك. والحقيقة لقد استدرجتك العزيزة أنا لعرين الأسد بذاته ودبرت صفقة كان من المستحيل أن ننشد الأمل حتى بها..

هل تعرف ما هي الصفقة يا عزيزي المغرم؟.

وبعد صمت مني تكلم وقال متعاليا بل شامتا في حب أصبح غير مفهوم النتائج والمعالم داخل قلبي المضرج بالألم:

ـ ستتم صفقة لتبادل الأسرى يا أدريان، بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة، وغدا ستنتقل معهم لوطنك، الذي أراه يضحي بالغالي والنفيس في سبيل الحصول على جاسوس احترقت ورقته لدينا وأصبح لا نفع منه ولا مضرة يدلي بها على تراب الامبراطورية هاته ولا على هذا الفكر العظيم

صمت، تدور الأفكار والمشاعر داخلي، في مهب واحد لعاصفة قذرة، ينالني منها الغضب والهزيمة والخيانة والقهر، لا شيء أستطيع تفكيك ألغامه، ولا بد أن انفجاري سيكون قريبا ومهولا ولعله الخسران الأخير.

لطالما عرفت أن الجنس البشري مهزوم أمام الطمع والجشع، لطالما عرفت أن الأحلام الكبيرة ان لم تتحقق، ستكون سقطتها مبرحة لتكسر ضلوع ذاك الحالم المسكين، بل قد يدخل أحد تلك الضلوع، ليغرز في القلب أجزاءه الحادة.

لا محالة.. انا في موقف لا احسد عليه، لا محالة! فكبريائي المهزومة تخدش بشراهة أفقي البعيد، أفقي الذي كان من وراء البحار، ينشد الخير للجميع.

لكنه ابتسم بعلو، مفتخرا بكلماته المثقلة علي بالهموم، والتي استدرجتني نحو الهاوية السحيقة والمظلمة.

توغل في غرفتي بسكينة الملك المغرور، ودخل من باب شرفتها مشيرا علي باتباعه، ومكان علي الا أن فعلت، أمرني بالجلوس معه على طاولة مستديرة مصنوعة من السعف وملونة بالأبيض المشرق تعاكس فيها ألوان طيفي الرمادية والقاتمة.

طلب الشاي الأبيض لكلينا، وبعد أن أحس مني بسكينة المهزوم والمفكر في ألامه قال:

ـ من قال أن الحب يا أدريان هو الطريق، الذي سنرجع فيه ذواتنا؟ لم يكن ذلك أبدا منهج العظماء ولا الذين تمكنوا من خوض غمار عالمنا والعيش فيه. وانتصروا وقهروا القريب قبل البعيد.

ألا تراني وسيما؟ وراء وجهي هذا شكل آخر ووجه آخر، ليس لي صديق غير الكتب، وليست ككتب العامة يا عزيزي، انني أختار النادرة والتي يستحيل على أي أحد على هذه المعمورة اقتناصها، يسحبني التفرد بشكل رهيب يثيرتي لأصبح ما احبه، وما اريد أن أكونه، وكما قلت لك أكره العامة من الناس، أكره أن تتداخل أنفاسهم النتنة على أرواحي الموجودة في مكتبة، لن يستطيع أحد في المعمورة تقليدها، لهذا أقتلهم.. لكي لا يأخذوا جمالها وندرة فنها مع عقولهم الناكرة.

وهناك سر آخر سأريك اياه، سترى أكثر الامور ندرة في العالم يا عزيزي، سترى وجهي الحقيقي الذي تزينه وسامتي.

ووقف، متحمسا منتشيا كأنه تملك جائزة فخمة، وأمرني لانطلق معه، كنت أمشي أجانبه، والشيء الوحيد الذي كان يدور داخل عقلي، أن هذا المخبول سيطلعني عن سر لن يتركه معي كثيرا، ولا بد أن الموت سيضرب معي موعدا قريبا فأين المفر.

هناك وأنا أسير، نحو مملكته وعالمه الذي يراه بخبله، أحسست أن هذه الجدران والطرق، تسكنها الأشباح ويرمي الصدى فيها صوت الشر والعذاب على مسامع روحي، كأنه قبر فارغ ومخيف، تسكنه الثعابين والحيات بعد منعرجات ملفتة، كأنها متاهة يا سادة، كأنني أسير في عالم غريب مخيف، مندثر منذ مئات من الأعوام بل العصور.

غبت في معظمها نحو ذكرياتي، تجرني تلك الازمان التي قضيتها أتدرب على ترويض النفوس، على امساكها بطرف سبابتي فأروضها فترضخ لي، عرفت هنا أن فوق كل ذي علم عليم، وأن النفس الشريرة، قد تموه شرها بوجه جميل.

فجأة...

نظر لي نظرة غريبة، تمتد للأقاصي، حيث يعيش الخبل والغرور والجنون، ووضع كفه على الباب ففتح كأن به عفريت، ودخلنا لأرى الجحيم بعيني، قشعريرة ألمتني، وأحسست بموضع قدمي التي هي على أرض وموضع الشر نفسه، فلا بد أن هذا مرتع ابليس بذاته ومملكته الخافية عن الأبصار.

كانت هناك خزائن من خشب السي كويا نفسها التي صنع منها مكتبته الفاخرة، كانت عبارة عن مربعات فوق بعضها ذات أبواب من زجاج يلمع كأنه صنع للتو، كانت العشرات والعشرات منها تحتوي مخلوقات ونباتات لم أر في حياتي مثيلا لها، كل شيء من الحضارات القديمة من التماثيل الفرعونية ومن حضارات بلد ما بين النهرين ومن حضارات المايا أقدم الأشياء التي يصعب على بلد كامل امتلاكه فكيف بشخص واحد؟!

ذهلت... لكنه لم يبد الكثير من الحماسة، حتى وصلنا لمكان لا بد أنه مركز سره ومجلسه الذي يحب، توقف باستقامة العسكري، وابتسم مرة اخرى ولكن هذه المرة بشراهة، كأنه وصل بي لبغيته وقال:

ـ هذا المكان لم يطأه غيري وغيرك يا أدريان، هذا المكان اشعر فيه أنني أمتلك قوة الحياة والموت، وأنني الوحيد الذي يرحم أولئك المعتدين بأنفسهم، لأعلمهم أن هناك قوة أخرى تستطيع في لحظة صغيرة انهاء كل شيء... انهاء غرورهم كأنه لم يكن.

تعال... ادخل وقل لي كيف ترى هذا السر الذي اكشفه لك يا صديقي؟..

ودخلت، رأيت ما أكد لي خبل هذا المجنون، ما أكد لي ساديته التي بلغت أشدها واكتملت ببشاعة، كل مربع من خشب السي كويا يحمل رأسا بشريا في زجاجة وفوقها تذكار كانت الجثة تملكها، راح ينظر لي بجنون، وهو معجب بدقته ونظامه المقرف، وبين تلك الأجزاء البشرية المحفوظة في قواريره وسوائلها، رأيت رأس الدون ألفونسو، وديوانه الشعري الذي ألفته له، كتذكار مجنون.

وثم... رأيت قلبا في زجاجة، لم يكن رأسا لا... انه قلب.. قلب أنريكي ابن روزالينا، لأن ساعة الشوبارد فوق فؤاده والذي يحمل جرحا من أثر طعنة السكين.

شعرت بالغضب والقلق والرغبة في تخليص العالم من هذا الجنون المريض، الذي يقتل دون حسبان ولا حساب، شعرت بحماسته المضطربة، فعلمت أن هذا الشعور لن يسمح لأي حد بسلبه اياه.

مددت يدي له اصافحه، أجل... لا حيلة لي انه يمتلك الدفة الاقوى، وعندها طار عقله، كأنه وجد يده اليمين المخبولة، وعقلا يقدر حسب ظنه قيمته السادية، رآني بتلك الشاكلة التي عرفت انها ستقنعه وترضيه، فلكل منا نقطة ضعف، ان كانت نقطة ضعفي عاطفة بل قلبي الذي حلمت أن أجد له مكان في هيكل الصراع الموبق هذا، قلب جاسوس تتكدس حوله الاضطرابات الفكرية والنفسية والعاطفية من كل الجهات، فالأميرال ألكسندر خور بتشوف، كانت نقطة ضعفه الغرور، وتقدير الذات التي لم يرها إلا في وجه هذا الجاسوس الذي أمامه.

أصبحت من تلك اللحظة، صديقه الوحيد ولربما نقطة ضعفه الوحيدة أيضا..

السر الثالث عشر

سر روزالينا

أدريان ريتش هوفمن
سجن لوكيا نيفكا كييف أوكرانيا 1960

قبلة الموت...

ماذا نتمنى من الحياة؟ ماذا نتمنى من الأحباء؟ لا شيء يغدو مع الامنيات جميلا، الا الوفاء والاخلاص، طعم الخيانة مر علقم ومرير، يعكر صفو كل قرارة نفس، يعذب كل روح تريد أن تجد ملجأ في هذه الدنيا التي تبتلينا سنونها كل مرة..

سحقا! هذه الليلة لم تنتهي إلا وتآكلت من فوري، فالروح عزيزة وان كان موتها شرف وشجاعة، تراها تتعلق بالحياة الهزيلة وتتمنى عمرا مديدا في عز وبذخ

بعد ذاك الجنون مع الأميرال، عدت أدراجي لغرفتي، تصنعت خلالها البله والاضطراب كنفسه الخبلة، أفكر في كثير من الأسئلة والأجوبة أولها كان، كيف تكون نهاية أمري؟.

أعوده لأحضان معسكري الرأس مالي؟ أجر هزيمتي الهزيلة، ونظرة عار لرفقاء اعتقدوا أنني مفتاح كل شيء، أم هروب هنا في حضن مضطرب وسادي، يجمع تحفه من جثث البشر!.

أم موتة شرف، أم هرب يخلصني من الجميع وحتى من نفسي؟

وجاء الصباح، هذا الصباح الذي ستتم فيه صفقة روزالينا بينها وبين رؤسائي

الرأس ماليين، ستكون أعظم صفقة لتبادل، لم يكن عادلا ولا منصفا لي.

جاءني الأميرال مبتسما، قدم لي كرما لم تظن نفسي أنها ستلاقيه منه، ربت على كتفي وانا أتأنق أمام المرآة مبتسما قائلا:

ـ لقد هزمتك أنا ستازيا يا أدريان... بالأحرى هزمك قلبك يا صديقي، ولكنني لن أتخلى عنك، وقريبا ستراها في أحد قواريري لأشفي ثأرك منها..

أحسست بسكينه في قلبي، ولا بد أنه سيخطط لهذا دون شك... جاريته وأقنعته برغبتي الأخيرة في الكلام معها.. فكان لي ما أردت ولكنه بعقله المضطرب قبل هذا بشرطه الذي يعلم هو وحده بخبثه كيف يجرني نحو مكان رؤيته، كان مفتوحا على الجرح..

أدخلني غرفته، ومن مكان كنت فيه أرى كل زاوية فيها، رأيت روزالينا تجهز نفسها كأن هناك عرس فاخر لا بد لها أن تكون بأزهى حلتها فيه، اقترب منها وراح يغازلها فبادلته كأن شيئا لم يكن، ثم لبست قرطيها، وأطلقت شعرها الأسود الكثيف على كتفها ثم تعطرت بعطر دي بريما فارا، واضعة إياه وراء أذنيها، فانتشر عبقها الذي طالما حمل ذكريات حبها وصوره، وراحت

تسترسل في ضحكاتها وسعادتها... لتقول:

ـ سيخرج أخيرا كل من ظلم في سجونهم، اليوم سيسطع فجر جديد على المناضلين والمكافحين، يستحقون الحياة بكرامة لأجل تضحياتهم..

تكلم الأميرال قائلا:

ـ كان الثمن باهظا أليس كذلك؟

صمتت ولم تجبه وراحت تسوي شعرها كأنه لم يسأل. فعاود سؤالها وهو يحاول التمدد على سريره بابتسامته الهازئة:

ـ إنه يظن أنك تحبينه.

ـ من؟ ... تقصد أدريان؟

ـ أجل

ـ إنه يريد أن يصدق ذلك، فليصدقه.

ـ ألم يعجبك؟! فهو وسيم وجذاب جدا. ونظراتك إليه تكشفك.

ـ أجل. أحبه ومغرمة به، بل كنت أعشقه ولا زلت، ولن أحب غيره أبدا، ولكنني أحب وطني وشعبي ومعتقداتي أكثر من أدريان نفسه، ولو كان موته سيحل معضلة ترفع شأن بلدي فسأقتله

بيدي يا ألكساندر.

آخر جملة، كانت قد أنهت حياتي بالفعل، ودمرت حبا جارفا غيرني، لينتهي في جملة واحدة فقط. وببساطة.

كان لقلبي نبض قبل كلامها، والآن أصبح مدينا لحياة يعيشها فوق عمره، رأيت وأحسست بحواسي الخمس بل ربما بحواس أخرى تضاعف الألم والمرارة وشعور الخيانة بطعنة حبيب وراء الظهر، وبالضبط منطقة قاتلة ببطء. وليتني مت تلك الأيام التي دعاني الموت فيها، فالموت راحة من كل شر في الحياة، من كل موت للمبادئ، لكل خيانة تجرح الشرف والنبل والحقيقة السامية.

ووددت أن أقتلع كل غض ويبس وحلو ومر، لم أرد للحياة أن تستمر، وتدمرت حقا، راجعت نفسي، منذ أن حطت قدماي على هذه الأرض، لأجد نفسي، قد ظلمت من أقرب الأحباء، واستغليت طيلة حياتي، دون هدف، وموت عظيم، تمنيته صغيرا ولازلت.

وثم... نظرت له نظرة غريبة، وأخرجت من حقيبة يدها الصغيرة و السوداء واللامعة، أحمر شفاه بلون الدم ومارست بفتنتها رسمه على شفاهها التوتية، فرأيته ينساق اليها كالمجنون، أثاره لون الدم ذاك، فقبلها قبلة لطخت شفاهه بها وبعد لحظة، تعد بالثواني رأيتها تتلوى وتهتز الغالية، كمنديل مربوط

تعصف به رياح هوجاء، خرجت من مكاني مضطرب، فتأوه الأميرال كالسكير المجروح يصارع الموت هو الآخر، وبين تلك اللحظات الدقيقة، فتح خاتمه وشم غبارا كان داخله ليسقط مغشيا عليه وهو يصرخ على جنوده، نظرت لروزا لينا وهي تصارع موتا محتما، بسم دسته في أحمر شفاهها لتنقله له منتقمة لأحبائها لا تعبأ بألمي المبرح عليها.

أمسكتها أود أن أقبلها لأموت أيضا بنفس موتها ولكن السم كان قد اختفى بين شفاههما وانتهى..

كان جنود الأميرال، يمسكون بي يودون اقتلاع حياتي التالفة والمنتهية، بينما كنت أرى اهتزازات روح روزا لينا الأخيرة، فيهتز وجودي..

رميت بعد ضرب مبرح ومهلك في زنزانة من الصقيع والظلام، لا نور فيها لا أعرف قدر الأيام والزمان..

وبعد سكون ووحدة وألم الجسد والروح كأنني في قبر، سمعت وأنا الذي كنت على الأرض وقع أقدام كثيرة، فتحت باب قبري، وحملتني لمضجعي الأخير..

وبعد زمن لا أعرف قدره استفقت لأجد نفسي في مستشفى سوفياتي وعلى سرير فاخر ودافئ لا يدفئ ألمي البارد فيه كالصقيع..

دخل علي الأميرال، كأن هذا الرجل لا يموت، كأنه يملك سبعة أرواح أو ربما أرواح كثيرة لا تعد ولا تحصى، كأن الاشرار لا يموتون، ولا ينتهون أبدا...

قال لي:

ـ صديقي العزيز، لقد انتهت حياة حبيبتك في قبر بارد، بعد ان انتهكت قوانيني منذ احبتك، وبقت فيرا تذكرني بها... لهذا اود انهاء حياتها الاخرى...

صعقت!

لم تبق سوى فيرا! القطعة التي تذكرني بها... وبوالدتها أنا ستازيا، كأنها

عبارات تخرج من فاهه دون عبء يذكر، بل دون احساس بشري يشير بأنه انسان. فكيف سأنقذها من هذا المخبول؟ أليس شغفه بالأشياء النادرة نقطة ولعه وجنونه الآخر؟.. هنا استدعيت عقلي ورحت أنازعه في سبيل انقاذ روح الصغيرة، كان يريد أن أعيش، يريد من روحه الخبلة أن تؤنس شرها المريض روح تابعة تقدر ساديته ومجونه...

وعندها حطمت روحي أمامه، وصارحته بخديعتي له، وأنني كنت رجلا يحاول التملص بعقله وحيلته من موت حتمي داخل عرينه الشيطاني والمظلم...

صار غاضبا دون أن ينبس بكلمة وعندما قرر اعدامي وهم بالرحيل... اقترحت عليه آخر أوراقي... قائلا:

ـ سيدي الأميرال، هل تريد الحصول على اندر الكتب في العالم؟ كتاب يكتبه انسان سيموت.. بل انه ميت بجميع اشكال الموت..

وفعلا هزه كلامي ورجع لي بعد خطواته القليلة التي خطاها خارجا وقال:

ـ وكيف هذا؟ هل هو شيطانك مثلا؟!

ـ لا.. بل هو انا فاجعلني من المنظرين.. اكتب لك حياتي منذ كنت طفلا في فايمر، إلى غاية لحظة تطبيق حكم الاعدام علي..

أعجبه الامر، ونالت منه فكرتي وعندما رأيت غبطته، سللت كلمتي الأخيرة قائلا:

ـ ولكن بشرط وحيد وصغير يا سيدي الأميرال.

ابتسم ابتسامة تصاحبها تنهيدة صغيرة، وجلس على الكرسي المقابل لي وقال:

ـ تفضل يا صديقي، ولن اعتبر هذا الامر شرطا، لأنني لو اعتبرته كذلك، لكنت انهيت حياتك في تو واللحظة، سأتكرم عليك يا صديقي أدريان...

رغم أنني أعرف مكنون شرطك المسبق هذا، فهل تريد مني أن أخبرك عنه؟

صمت فقال:

ـ انها ابنتي العزيزة فيرا...

هززت رأسي هزة خفيفة تبدي القبول فقال:

ـ سيكون لك ما تريد يا أدريان، سأدخلها مدرسة داخلية، ولن أراها بعد الآن أبدا.. وانني اعدك باسم رابط الدم...

وانتقلت لهذه الغرفة في سجن لا أعرف موقعه من على هذه الأرض، ولا ان كانت الشمس تغرب عليه أو تشرق... ما عرفته منه بعد ذلك أنني عدت لسجن لوكيا نيفكا وأن صفقة الأسرى قد ألغيت وانتهى أمر الجميع بما فيهم الجاسوس أدريان ريتش هوفمن الذي ينتظر حكم الاعدام عليه بسرية مطبقة..

وبينما أخط لكم هذه السطور الأخيرة... كان هناك قلب لجاسوس ناضل بكل ما أوتي من رغبة، لأجل أن ينعم بالحب بأسرة عادية، لديها فروع وأصل وجذور، برجل همه أن يعود مساء لحبيبة قلبه، وقد كانت تشتكي من أطفالها المشاغبين، ومن مشاكسة صغيرها الذي أضحكها طول النهار..

لم ارد أن أرى عذاب أحد، ولا أن أقاتل لأجل مذهب أو معتقد أو سياسة تتبني فرض نفسها على حساب غيرها..

أردت أن أكتب عن فكري، الذي يتبنى بناء الانسانية وحضارتها كجنس عاقل ومدرك، ولكنتي ابتليت بعمل كنت سأناهضه لأجل احتواء الجميع دون فرق أبدا..

انني اسمع الباب يفتح، وأنا أكتب آخر كلماتي، ليدخل علي زمرة من الجنود، وبينهم أرى اليد التي ستضع على رأسي الغطاء الأخير لتطبيق حكم الموت، وعلى معصمها... يا إلهي... انها ساعة أنريكي شوبارد!.

الفهرس

الموضوع	الصفحة
ـ تقديم	5
ـ السر الأول:	9
سجون الروح أعظم من سجون الجدران	
ـ السر الثاني:	13
عقلانية كوّنت جاسوسا	
ـ السر الثالث:	24
العمر الحقيقي ليس رقما.. العمر هو مستوى فكرك	
ـ السر الرابع:	32
مهمة جراناما	
ـ السر الخامس:	43
الحقيقة أعمق من السطح.. فلا تجعل المناظر تخدعك	
ـ السر السادس:	48
الحب الطريق الأول الذي يأخذنا للجحيم أو الفردوس	
ـ السر السابع:	54
التحرر من الشهوات يشبه ألم الانسلاخ لكنك ستكون انسانا جديدا	
ـ السر الثامن:	59
تغير ليتغير حولك كل شيء.. حب في جبال سييرا مايسترا	

ـ السر التاسع: 69
لتغير ما تريد، يجب أن تكون ما لا تريد
ـ السر العاشر: 82
ـ السر الحادي عشر: 87
سر نظرية القانون العظيم
ـ السر الثاني عشر: 102
سر الأميرال ألكسندر خوربا تشوف
ـ السر الثالث عشر: 108
سر روزالينا
ـ الفهرس: 115